

محمد عولة

ناصريون وماركسيون

هذا الافتراء على الناصرية والجهل بالماركسية

هذا رد على الدكتور فؤاد زكريا ، وعلى كل الاساتذة والدكاترة الذين يحترفون تأييد كل النظم والهجوم على نفس النظم ..

محمد عودة

ليس هناك يسارى يحمل مسئولية والتزام اليسار فى مصر بأى معايير ، يرى أن هذا هو أنسب الاوقات لأثارة قضايا وخلافات سويت من زمن طويل بين أهم قوى اليسار وأجنحته .
ولليسار مثله مثل كل العقائد والمذاهب خلافاته وصراعاته الفكرية والسياسية ولكن ما يجمعه خاصة فى الشدة أكثر مما يفرقه .. وليس هناك بين اليساريين والناصريين أو الماركسيين أو الوطنيين التقدميين والراديكاليين من يمكن أن يجد أن هذا هو وقت مراجعة الحسابات وتصفيتهما فيما بينهم، والانتهاى الى نتيجة قاطعة قاصمة هى إدانة اليسار جميعه وأهم فرقه .

وذلك لأن الاشتراكية وهى قضية ومبرر حياة كل اليساريين فى محنة وتعرض لهجمة ظالمة وعاتية فى مصر وهو ما يحتم على كل اليساريين من كل الفصائل والمذاهب أن ينسوا خلافاتهم ويتناسوها ليقفوا صفا واحدا دفاعا عن القضية الكبرى .

ان اليمين المصرى وكل قوى الثورة المضادة تشن حملة ضارية تهدف منها الى تصفية الاشتراكية كفكر أو تطبيق وأن تخرب القدر الذى تحقق منها، ثم تعيد البديل الوحيد عنها وهو الرأسمالية.

وقد بدأت الحملة على مراحل ، وأثارت فى البداية عيوب التطبيق وان الاشتراكية لا اعتراض عليها ولكن النقص كل النقص هو فى الاسلوب الذى طبقت به والذى سبب كل الشكوك والمشاكل، وفصلت الاخطاء وضخمت وكررت حتى اختلط الأصل بالفرع .. وانتقلت الحملة الى مرحلتها الاخرى وأن العلة لم تكن فى التطبيق ولكن فى الاختيار ذاته أى الاشتراكية وقد استوردناها وتعجلناها وفرضناها فرضا فى غير وقتها وغير أرضها وعلى شعب لا يتقبلها وغير مستعد لها وكان محتوما أن تتعثر وتتحرف وتنتهى الى الفشل الكبير.

واقترنت الحملة بتقديم البديل .. وبدأ هذا بدوره على مراحل .. أولها الدعوة الى انصاف القطاع الخاص الذى ظلم وغبن والذى لم يمنح الفرصة ليقوم بدوره وهو دور أساسى ثم المفاضلة بين القطاع العام الفاسد الذى تتحكم فيه البيروقراطية والروتين ولا يبالي بمصالح الوطن والناس وبين القطاع الخاص الذى يضطرم حيوية ونشاطا وحماسا للمغامرة والابتكار والتجديد والذى لا بد أن تكون له- بمقتضى هذه المواهب والحوافز- الاولوية.

وبلغت الدعوة ذروتها فى المطالبة بتصحيح الامور ورد الولاية الى القطاع الخاص ، بأن تزال كل القيود أمامه وأن يشارك فى ملكية وادارة القطاع العام وأن ينتهى به الامر الى قطاع حكومى ومسخر لخدمة الرأسماليين فى القطاع الخاص .

ووقف أحدهم فى مجلس الشعب وسط ممثلى التحالف ليعلن أن من حقه وحق أى مواطن أن يثرى ويجمع المال كما يشاء بل وان من حقه أن يحرق أمواله لو أراد .. وهذه حرية لا توجد فى قلاع الرأسمالية فى العالم .

وفى ظل هذه المواجهة الحامية بين التقدم والانتكاس والتي قد تقرر مصير كل شىء لايمكن أن يكون مقبولا أو مغفورا لاحد- يعلن عن نفسه انه من صفوف اليسار- أن يثير ويفتعل خلافا بين اليساريين لا يرحب باثارته ولا يفيد منه سوى الطرف الآخر المتربص و المتوحش .

وقد يكون التزاما ضروريا على اليساريين جميعا فى هذه الاوقات أن يأخذوا مواقعهم وأن يحددوها تماما ويصححوها وقد يكون عليهم أن يمارسوا أكبر قدر من النقد الذاتى أو النقد المتبادل ولكن على أن يكون ذلك بما يعزز تكاملهم وتضامنهم ومن أجل اشتراكية أفضل فكرا وتطبيقا ومن أجل اشتراكية أنسب لواقع معقد ومعركة طويلة ممتدة .

ولا يمكن أن يوصف بالبراءة أو الحكمة أن يضع فيلسوف يقول أنه يسارى كل مسوحوه وأن يقف فوق منصة ناظرا من أعلى ليعلن بكل الثقة ان ما حدث فى مصر لم يكن ثورة ، وأن لم تقم ديموقراطية أو اشتراكية وان لم يكن هناك اشتراكيون أو ثوريون . وان ما سمي بالناصرية لم تكن الا فاشية أهدرت حرمات مصر وا لمصريين وسحقت روح الانسان المصرى .

لقد زيفوا- الناصريون - الاشتراكية و ابتذلوا ، ولم يتعدوا فيما حققوه وان أضافوا طبقة مستغلة جديدة الى الطبقات القديمة.. بحيث أصبح عمقها وعرضها 5% بعد أن كانت نصف فى المائة ولا شىء آخر . ولا يمكن أن يكون حرصا على اليسار وحفاظا على اصالته ورسالته من طرف نفس الفيلسوف أن يقف ليقرر بما لا يقبل الشك ، ان الجناح الآخر للاشتراكية والاشتراكيين ، وهم الماركسيون ، قد ارتكبوا أكبر الخطايا وأقطعها بأن خانوا قضية الاشتراكية وخدعوا أنفسهم و الناس حولها.. وباعوا مبادئهم وأشخاصهم رخيصة ، حين وضعوا أيديهم فى أيدي الناصريين وباركوا النظام الذى قام وأيدوه باسم الاشتراكية .

ويلقى الاستاذ هذه النتائج الجامعة المانعة بتجاهل كامل وجهل أيضا بأوليات العلم السياسى والواقع القومى وضد بديهيات الفروق والمواصفات بين النظم والمذاهب التى لايعلم عنها ما يكفى . وهناك ظاهرة جديدة ، فريدة فى مصر ، وهى انتحال مفكرين ليبراليين ممن ينتمون فى آخر المطاف الى صفوف اليمين .. لصفة اليسارية المفرطة وتقربهم لليسار الماركسى لكى يلوموه ويعاتبوه ثم يبصروه بأخطائه وعثراته.. وأهمها وأشدها تحالفه ذات يوم مع الناصريين واصراره حتى اليوم على هذا التحالف.

ومنذ بضعة أشهر وجه الاستاذ توفيق الحكيم رسالة خاصة منه الى اليسار المصرى .. تكاد تكون نسخة طبق الاصل من " ملحمة " الدكتور فؤاد زكريا وتثير نفس الحجج والذرائع حرفيا . وتمتد هذه الظاهرة الى دوائر كثيرة يمينية وبيروقراطية لا يفوق كرهاها للاشتراكية الناصرية سوى حقدتها على الشيوعية " الماركسية " ولكنها تقيم نفسها - فجأة- ناقدة وناصحة للماركسيين تنبهمهم الى أنهم ارتكبوا أكبر أخطائهم ذات يوم بالتحالف مع العهد الناصرى وانهم يضاعفون هذا الخطأ بالدفاع عنه اليوم وتأكيد ماحققوه ، بينما الموقف الصحيح " ماركسيا " هو أن ينضموا اليهم فى هجومهم لازالة كل آثار ذلك العهد وتصفيته تماما لكى تقوم الحرية والديموقراطية ويشاركون فيها. وقد يكون السيد الدكتور نقيا كالبلور طاهرا كابتسامة الملاك ولكنه شاء أم أبى يقف مع هؤلاء ويقدم لهم أئمن الخدمات .

واليمين فى مصر قوة مغلقة ومهلهلة بلا جذور ولا أمل أو مستقبل ، وهم يعيشون فى قلق متصل يوما بيوم.. وفى افلاس فكرى وسياسى شامل ليس لديهم ما يقدمونه أو ما يقنعون أو يخدعون به أحدا. وقد تجاوز المشاكل والقضايا كل الحلول الى اليمين اذا كانت هناك حلول ، وتقدم الوعى الوطنى والاجتماعى، ببعده شاسع كل حجج ومقولات البورجوازيين والاقطاعيين قوى حكم عليها الواقع والتاريخ.

ولهذا يلجأ اليمين المصرى الى وسيلة مستوردة لعلها الوحيدة الباقية وهو يستورد من الغرب الصيغة التى استطاع بها البورجوازيون الغربيون أن يؤجلوا نهاية النظام لبعض الوقت .. وهى شق صفوف اليسار واذكاء صراعاته وخلافاته الداخلية لتستغرقه وتستهلكه وتشغله عن العدو الحقيقى .

وحينما ظهرت وازدهرت الحركة النقابية فى أوائل القرن الماضى .. واعتنقت المبادئ الاشتراكية والثورية، وهددت النظام الرأسمالى كله ، عمل الرأسماليون بكل ما استطاعوا على اشاعة الخلاف والفرقة فى صفوف النقابات .. نقابات اصلاحية ونقابات ثورية ونقابات مسيحية .. وأغرى الرأسماليون شريحة من العمال غمروهم بالامتيازات والمزايا وخلقوا منهم " ارستقراطية عمالية " كما سميت كانوا اداة الرأسمالية المطيعة فى البطش بالعمال أو تضليلهم .

وفي مواجهة الحركة الاشتراكية الدولية التى ضمت كل الاشتراكيين فى مواجهة الرأسمالية والامبريالية العالمية والتى جمعت عمال الغرب المستغلين أو شعوب الشرق المستعمرة التى أعلنت أن قضيتهم واحدة وأن طريق خلاصهم واحد .. هو الاشتراكية .. سخر الرأسماليون كل مايملكون ويستطيعون ولعبوا دورا أساسيا فى انشقاقها انشقاقا كبيرا قبل الحرب العالمية الاولى الى اشتراكيين ديموقراطيين..

يرفعون شعارات الوطنية و الديمقراطية والى ماركسيين ثوريين اتهموا بالأممية والعنف والديكتاتورية.

وبعد الحرب العالمية الثانية وانتصار الاشتراكية في مجموعة من الدول الكبرى والصغرى فى أوروبا وآسيا، وبعد انتصار ثورات التحرير الوطنية فى أهم المستعمرات وبعد انتشار الافكار والمبادئ الثورية والاشتراكية فى ارجاء عديدة وبعيدة من العالم ، تضاعفت حاجة الرأسماليين وأصبحت ضرورة حياة أو موت أن يبثوا الخلاف والفرقة ويشيعوهما في صفوف اليسار.. فى الغرب أو الشرق أو العالم الثالث خاصة في هذا العالم !

ولازال العالم الثالث هو مصدر القوة والثروة ، وبعد تحرره وبعد انتقال الثورة فيه الى المطالب الاجتماعية وتطلعها الى الاشتراكية أصبح ضروريا للرأسمالية والاستعمار الجديد أن يصدرا " لعبة اليسار " على أوسع وأبرع مدى الى أهم بلاده ، وأقبلت قوى الثورة المضادة المحلية على تعلم أصول اللعبة بحماس .

وفى الغرب مثلا .. قهر اليساريون الفرنسيون خلافاتهم الحقيقية والمصطنعة وهى التى أخرجت الثورة فى بلد كان مقررا أن يكون طليعة الثورة ، والاشتراكية فى أوروبا .. وكانت كل المقومات ناضجة بعد الحرب العالمية الثانية .. وقام ائتلاف من الاشتراكيين والشيوعيين حول برنامج عام مفصل خاضوا به الانتخابات واستطاعوا أن يكسبوا نصف الناخبين وأن يقفوا على مشارف السلطة فى انتخابات رئاسة الجمهورية.

واعتبر ائتلاف اليسار الفرنسى أخطر تحدى واجهته البورجوازية الفرنسية عامة، وتجمعت لمقاومته كل أجنحتها .. من البورجوازية الاطنظية المؤمنة بالولايات المتحدة والحلف الغربى الكبير الى البورجوازية الوطنية الديجولية المؤمنة بفرنسا وأوربا المستقلة بل ويساندهم كل البورجوازية الاوروبية والأمريكية وذلك لان قيام فرنسا الاشتراكية الديمقراطية وفى ظل حلف يسارى شامل هو ثورة فرنسية اشتراكية سوف تطيح بهم ولايد أن تعم أوروبا كما فعلت الثورة الفرنسية الاولى .

وفى ايطاليا أصبح الحزب الشيوعى الايطالى ، بنظرياته وتطبيقاته المستقلة والحكيمة هو القوة الاساسية الثانية بعد الحزب الديموقراطى المسيحى ، وهو القوة التى تقدم البديل والامل . وقد حكم الديموقراطيين المسيحيون ايطاليا أكثر من ربع قرن منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .. ولكن انتهت ايطاليا تحت حكمهم الى أن أصبحت " رجل أوروبا المريض " كما تسمى ، وتطلعت جماهير كبيرة الى الحزب الكبير الآخر والقادر وهو الحزب الشيوعى .

وفى آسيا.. خرجت الهند بعد الاستقلال تبشر بأن تكون قيادة الثورة الآسيوية عامة . وتقدم مثلا يحتذى للدولة والمجتمع الآسيوى الديموقراطى الاشتراكى .

ولكن دب الصراع واستفحل بين حزب المؤتمر وبين الشيوعيين وبينه وبين الاشتراكيين وانقسم الحزب الى يسار ويمين .. ثم انقسم الحزب الشيوعى الى عدة أحزاب ثم انقسم الاشتراكيون الى سلسلة أحزاب وتنظيمات ودارت الهند فى حلقة مفرغة .. وتعثرت فى خطوات ثقيلة بطيئة .. وازاء مشاكل هائلة تلح فى الحلول .

وأرادت انديرا غاندى أن تعيد بناء حزب المؤتمر وأن تطرد الرجعية منه وأن تعيد له ذاتيته ومكانته، وأن تضم اليه من خرجوا أو انسحبوا منه وأن تقيم تحالفا لاوسع مدى مع القوى اليسارية والتقدمية الأخرى .. لتنهض بالهند وتكمل المسيرة .. وقام تحالف بين حزب المؤتمر وبين الحزب الشيوعى الهندى .. هو قاعدة الاستقرار الآن فى الهند .. ولكن تنصب عليه كل الحملات والهجوم .. وبينما تتهم انديرا أنها تسلم الحزب والسلطة للشيوعيين .. تتهم هؤلاء من الجانب الآخر أنهم باعوا أنفسهم للبورجوازيين .

ولم يأت الدكتور فؤاد زكريا بجديدا!

وفى آسيا أيضا كانت بورما بعد الحرب العالمية الثانية هى شرارة القارة الملتهبة وكان السؤال هل تكون " بورما " بحرارتها وحيويتها أم الهند بحكمتها وقوتها هى القيادة الاولى فى آسيا .. ولكن مالبتت الصراعات والخلافات والمعارك الايديولوجية والمسلحة ان شئت صفوف الاحزاب الوطنية والاشتراكية

والماركسية .. وأصبحت بورما تضم أكبر عدد يمكن أن تضمه دولة صغيرة من أحزاب عاجزة متحاربة.. وأصبح تاريخها هو حرب أهلية دائمة واختفت تماما من خريطة آسيا السياسية.. ولا بد ان تتعلم مصر وتستخلص كل هذه الدروس لا ان تكررهما أو تزيد عليها ، وخلافات اليسار فى مصر بيزنطية اكاديمية " غير ذات موضوع " وفق الوصف المشهور. وقد وقف أنجلز يؤبن ماركس يوم وفاته وقال : " أن أعظم اكتشاف قام به كارل ماركس انه اكتشف ان الانسان لا بد له ان يأكل ويشرب وينام تحت سقف لى يفكر ويتفلسف ويتدين " وهذا هو جوهر الاشتراكية والذى يتفق عليه الناصريون و الماركسيون والوطنيون التقدميون ، أو مايجب ان يتفقوا عليه في بلد لا يحلم ٩٩% من أهله بأكثر من هذا .

وأشد ما يثير جزع اليمين فى مصر هو ان تتحد قوى اليسار حول هذه القضية وان تبدع الافكار والحلول الخسبة والخلاقة.

لاشئ يثير قلق وفزع اليمين فى مصر مثل ان يتفق الناصريون بشعبيتهم و جماهيريتهم مع الماركسيين بفكرهم وتجاربههم . و ان يتشرب الناصريون تراث وتطبيقات الماركسية فى اطارهم القومى . وان ينضم الماركسيون وينصهروا فى المجرى العام للثورة المصرية و كل التراث المصرى والعربى وان تقدم مصر الفيض المبتكر والاصيل الذى تقدمه دائما .

ولا يكمل اليمين عن السعى المتصل المحموم لى يمنع قيام هذا الحلف ، وهم يلعنون الناصرية والناصريين على كل المنابر ولكنهم يستديرون ليطلبوا قبلة الموت على وجنات الماركسيين وهم يستमितون فى محاولة انتزاع الماركسيين لأن ينضموا اليهم فى تصفية الناصريين، وبعدئذ يستديرون لتصفيتهم أو ابقائهم قوة سياسية نظرية معزولة مع توازن تحكمه البورجوازية بدقة. والخلافات والصراع الذى نشب ذات يوم بين الناصرية والماركسية لم يكن بدعة أو خرقا لقوانين التاريخ .. والصراع بين المذاهب والعقائد وفى داخلها هو تاريخ الحياة الروحية والفكرية للانسان .

ومع الصراعات المفتعلة تقوم وتثور صراعات حقيقية قد تدوم لوقت طويل أو قصير، وتحل حلولا ايجابية بتفاعلات ومصالحات تثرى وتخصب فكر وممارسة كلا طرفى الصراع .

ومهما يكن الصراع الذى نشب ذات يوم واشتد بين عبد الناصر والماركسيين الا انه كان صراعا وخلافا بين ثوار وكان أيضا أقل حدة وعنفا من الصراع داخل حزب شيوعى واحد أو حزب اشتراكى واحد. وقد كان طبيعيا وحتما بالقدر الكبير المشترك من الصدق ومن الايمان بالثورة أن ينتهى الى تكامل وتعايش فى اطار الثورة المصرية الكبير ..

وحيثما حمل احد أقطاب الثورة واليسار الماركسى الى عبد الناصر قرار الماركسيين بالاندماج فى الثورة، وحل الحزب الشيوعى المصرى قال له عبد الناصر على الفور " الآن نستطيع ان نبني الحزب الثورى الذى يضمنا جميعا " .

والصراع بين قوى الثورة وفرقها المختلفة يحل عادة حلولا تتوقف على ميزان القوى فيما بينها، وعلى قوة وقدرة وشعبية كل منها .

وإذا كان الماركسيون المصريون قد انتهوا الى الاندماج الكامل فى المجرى العام للثورة المصرية فان هذا لم يكن استسلاما أو استيعابا، ولكن كان تقديرا صحيحا لميزان القوى ورؤية حكيمة سليمة لطريق المستقبل .

والماركسيون المصريون فى صفوف الثورة لم يكونوا ذيلا ولكن رافدا هاما اضاف الى قوتها واصالتها وأثر فيها بقدر ماتأثر بها.. وقد سد الثغرة فى الوحدة الوطنية والفكرية لمصر.. وليس هذا بالشئ الجديد المستحدث على الوطنية أو على الماركسية.

وقد كان أول نموذج للتحالف بين الوطنيين والماركسيين فى الشرق فى الصين فى بداية الثورة بعد الحرب العالمية الاولى .

وكانت الثورة يومئذ بقيادة الزعيم " صن يات صن " وكان أول زعيم اسويى ادرك ماتعنيه الثورة الروسية والنظام الجديد الاشتراكى بالنسبة لتحرير الصين .. و آسيا عامة ، وأقام أول تحالف وثيق بين الثورتين وبين البلدين !

وقد كون " صن يات صن " حزب الكومنتاج الوطنى، وقرر الشيوعيون الصينيون الذين الفوا حزبهم فى أوائل العشرينات قبول دعوته للانضمام الى الحزب الوطنى ، ولكن كافراد عاديين واعضاء عاديين وبغير عضوية مزدوجة أى بعد ان يتخلوا تماما عن عضوية الحزب الشيوعى وبهذا التحالف والاندماج.. جرفت الثورة كل الصين وتحققت وحدتها الوطنية.

ولعله لو عاش صن يات صن وقتا اطول ، ولم ينتكس تشيانج كاي شيك بالثورة ويفض التحالف لا ستمر واخذت الصين طريقا آخر خلافا نحو نفس الاهداف .

والعلاقة بين الوطنيين والماركسيين تختلف من بلد الى آخر وفق الواقع والتراث وعلاقات القوى ، ولكن تحكمها كلها قوانين ومبادئ ماركسية تلزم الماركسيين ان يقفوا وقفة كاملة مع أية ثورة وطنية تقاوم الاستعمار حتى ولو كانت قيادتها وبرامجها بورجوازية. وقد كتب ستالين فى دراسة مشهورة له عن اللينينية سنة ١٩٢٠: " ان أمير افغانستان الاقطاعى الذى يقاوم البريطانيين قوة تقدمية نؤيدها كماركسيين . والثورة المصرية التى تفودها البورجوازية المصرية (ثورة ١٩١٩) ثورة تقدمية نؤيدها كماركسيين، ولكن حزب العمال البريطانى الذى يقمع الثورات الوطنية فى آسيا وأفريقيا هو قوة رجعية تقاومها مهما رفعت من لافتات عمالية واشتراكية " .

وعلى هذا الاساس " الايديولوجى " ايد الاتحاد السوفيتى منذ قيامه وحتى الآن ثورات التحرير الوطنية فى آسيا وأفريقيا .

وقد ينكر الاستاذ الدكتور على عبد الناصر كل فضل أو مزية ، ولكن عبد الناصر باجماع الاسويين والافريقيين مثل العرب والمصريين كان أحد أبطال العصر والنضال الوطنى ضد الاستعمار ومن اجل الاستقلال والحرية.

وقد كان على الماركسيين المصريين وفقا لاول بديهيات الماركسية ان يتقبلوا قيادته وان يسيروا خلفها خلال معاركه الفاصلة، ولم يكن ذلك تبعية ولا ذيلية ، ولكن ماركسية صحيحة!

و الثوار، وطنيين أو ماركسيين ، لا يرون العالم من خلال مصالحهم مثل البورجوازيين أو من خلال ذاتهم مثل المثقفين النرجسيين ، ولكن يرون حركة التاريخ وقوانينه ويقدمون الثورة على كل اعتبار آخر!

وحيثما وقع الانقلاب الرجعى فى كمبوديا سنة ١٩٧٠، ! كانت العلاقة بين سيهانوك والماركسيين تمر بأزمة حادة لا تقل عنفا عن الازمة بين عبد الناصر والماركسيين فى نهاية الخمسينيات.

وعرض النظام الانقلابى على الماركسيين هناك انة يؤيدوه مقابل حرية العمل والحركة وبعض المناصب .. ان تكون لهم شرعية ونفوذ فى الحكم .

ولكن برؤية صحيحة وعملية للاحداث ومسار التاريخ رفض الماركسيون العروض ، بل ذهبوا من اللحظة الاولى ينددون بما وقع ويكشفون طبيعته الحقيقية .

وأرسل الماركسيون الى الامير سيهانوك الذى أعلن من الخارج بدء المقاومة لاسقاط الانقلاب- بيان تأييد- هو وثيقة سياسية ثمينة وفريدة أصبحت من تراث الثورة فى كل آسيا أعلن الماركسيون بدء صفحة جديدة ومبايعتهم لسيهانوك زعيما وقائدا للشعب وللمقاومة.

وتكونت فى المنفى حكومة مقاومة هى " الحكومة الملكية للوحدة الوطنية برئاسة سيهانوك " وتكونت فى الداخل جبهة وطنية من كل القوى الوطنية والمناضلة تحت قيادة سيهانوك . وتكون جيش تحرير جديد للحرب الثورية ، كان قائده الاعلى سيهانوك .

واستمرت المقاومة خمس سنوات تكلفت فى نهايتها بانتصار تاريخى . واجتمعت الجبهة بعد سقوط الانقلاب وتحرر كمبوديا وقررت مبايعة سيهانوك من جديد رئيسا للدولة وزعيما لكمبوديا !. ولهذا تغدو سذاجة قاصرة ان لم تكن مغالطة متعمدة ان يقال ان تصالح الثورة والماركسيين فى مصر كان صفقة أو خدعة أملتها ظروف دولية .

ونود ان نسأل الاستاذ الدكتور ما هو الموقف النموذجى الذى كان يجب على الماركسيين ان يقفوه مع عبد الناصر، وهو يملك من حوله الجماهير المصرية والعربية وتؤيده الى آخر مدى المعسكر الاشتراكى والحركة الثورية الدولية ، وتمجده جبهة العالم الثالث الاسيوية الافريقية كأحد ابطالها .

هل كان واجب الماركسيين حينئذ ان يعلنوا المقاومة ضده وان ينددوا به أمام كل هذه القوى و الملايين..
وإذا كان هذا ماينبغي فلماذا لم يجاهر به الدكتور وينصحهم يومئذ، وقد كان على الصوت في منبر من
أهم منابر الفكر يرأس تحرير مجلة " الفكر المعاصر " !

ولعل الاستاذ الدكتور لا يعرف قصة اخرى ، ان المبادئ الماركسية تقضى بان ينتهى التحالف بين
الماركسيين وبين الوطنيين الثوريين بعد ان يتحقق الاستقلال ويتسلم الوطنيون السلطة وقيموا الدولة
"البورجوازية " وتبدأ حينئذ بالنسبة للماركسيين معركة الثورة الاجتماعية وأقامة الاشتراكية ، والانتقال
بالثورة مرحلة أخرى يحملون تبعاتها وقيادتها .

ولكن حدث ان قدم عبد الناصر نموذجاً في الزعامة الوطنية والثورية ادى الى تغيير جوهرى فى الفكر
والاستراتيجية الماركسية في كل دول العالم الثالث .

فقد اختار عبد الناصر الاشتراكية، وبعد تحقق الاستقلال رفض الرأسمالية وأعلن الاشتراكية العلمية.
وكانت ظاهرة جديدة استغرقت اعمق البحث والجدل فى الاتحاد السوفيتى وبلاد المعسكر الاشتراكي ،
وفى الحركة الدولية، وانتهى بالخط الفكرى والسياسى الجديد الذى كان عبد الناصر رائده الاول، وقال
عن هذا الخط انه اذا ما اختارت القيادات الوطنية الثورية فى البلاد التى تحررت الاشتراكية فان على
الماركسيين ان يكملوا المسيرة والتحالف معها وتحت قيادتها ولبناء المجتمع الاشتراكي الجديد النابع من
تراث وخصائص وظروف كل بلد.. ويستمر التحالف كما بدأ وفق الواقع وميزان القوى الخاصة فى كل
بلد..

وقد كان واجب الدكتور المتجرد المنزه عن الاغراض ان يصحح معرفته بعض الشئ بالماركسية قبل
ان يصدر حكماً بادانة الماركسيين المصريين!

ولكن هل كانت الناصرية ذاتها فاشية سحقت مصر والمصريين ، وكان على الماركسيين ان يقاوموها
كما يقول الدكتور، أم كانت ثورة وطنية اشتراكية حررت ملايين مصر المسحوقة وعلى الماركسيين ان
ينضموا اليها ويؤيدوها .

وهل كان عبد الناصر ديكتاتوراً على الماركسيين ان يقفوا فى وجهه أما كان بطلاً قومياً عليهم ان
يبايعوه ويتبعوه.

ان نقد فيلسوف مفكر للثورة أو تقييمه لها يجب ان يكون نقداً علمياً قائماً على منهج وموقف ورؤية
واضحة، ولا بد ان يبدأ بنقد فكر الثورة ثم تطبيقاتها وسياساتها وبهذا يستطيع ان يكشف عن طبيعتها ،
فاشية كانت ، أم اشتراكية.. وهل كانت متناسقة متكاملة نظرياً وعملياً أم كانت منفصلة زائفة.

وللناصرية فكرها الذى سجلته مواقفها، وكان بحثاً متصلاً وخلاقاً عن مصر وعن افضل طرق ومناهج
الخلاص وتطور هذا الفكر من منشورات الضباط الاحرار قبل الثورة الى اعلان المبادئ الستة بعد
نجاحها مباشرة إلى كتاب فلسفة الثورة فى منتصف الخمسينات الى نقطة التحول فى الميثاق الوطنى
واعلان الاشتراكية ، ثم بيان ٣٠ مارس بعد النكسة وبداية الثورة على الثورة .. وفى النهاية مناداة عبد
الناصر بثورة ثقافية كاملة قبل وفاته بقليل !

وقد كان للثورة خطوطها السياسية الثابتة وتطبيقاتها، اجلاء الاستعمار القديم، وصد الاستعمار الجديد
وتأمين استقلال مصر وسيادتها الكاملة، وذلك بالاندماج بقوى الثورة العربية وقيادتها والالتحام بقوى
الثورة الاسيوية الافريقية ضد الاستعمار والقيام بدور طليعى فيها ، ثم التحالف مع قوى الثورة
الاشتراكية العالمية.. تحالفاً متكافئاً فى اطار الاهداف والمصالح المشتركة .

وفى الداخل كان للثورة هدف واحد هو تصفية المجتمع القديم المستغل واقامة مجتمع جديد يحقق العدل
والرخاء والحرية والخبز معاً.. واثبتت تجربة الثورة انه لا يتحقق الا بالاشتراكية .

ونقد الثورة يبدأ من مسح ماحققته وما لم تحققه بالدراسة وبالحقائق والاحصاءات، ولكن الأستاذ الدكتور
قدم بدلاً من هذا نقداً فريداً هو خليط مبتور من دعاوى رجعية يمينية ودعاوى طفولية يسارية أيضاً،
ومن أحكام قاطعة هو وحده الشاهد عليها ومن نتائج حاسمة بلا مسببات أو مقدمات وباسم الموضوعية
المطلقة.. والمثلى !

وهناك مقياس واحد لنجاح الثورة أو فشلها ولاصالتها أو زيفها بالنسبة للمصريين .. وهو ماحققته
للقضيه المصرية وهى قضية محورها وجوهرها تحرير مصر .. وهو الحلم التاريخى لكل المصريين

والذى توارثوه جيلا بعد جيل ، وثار وانتفض لاجله الملايين ، وسجن وعذب واستشهد فى سبيله عشرات الالوف .

الثورة التى تثبت نفسها هى التى تحرر مصر.. ولم يكن تحرير مصر بعد الحرب العالمية الثانية، ثم بعد قيام الثورة تبعه سهلة . كان أعسر واعقد منه فى أى مرحلة أخرى من مراحل كفاحها.. كان الاستعمار القديم البريطانى أشد تشبها بالبقاء من أى وقت آخر.. وكان الاستعمار الجديد الأمريكى متربصا ومثلها على الحلول، وكان العالم منقسما الى كتلتين تتصدر كل منهما دولة أعظم . وبينهما حرب كونية شاملة باردة وعلى حافة ان تغدو حربا ذرية ساخنة.. وكانت الكتلة الاولى الغربية ترى ان عصر القوميات والسيادة والاستقلال قد انتهى ، وان صرا جديدا هو عصر التكافل والاحلاف قد بدأ . ليس لاي دولة مكان مستقل عن الاخرين فى مواجهة خطر الشيوعية ، وكانت الكتلة الاخرى الشرقية ترى ان انقسام العالم قد وضع شعوب العالم ودوله ، خاصة التى تحررت من الاستعمار، أمام اختيارين لا ثالث لهما ، اما الوقوع فى استعمار جديد فى ربة الكتلة الغربية أو اختيار طريقها " الماركسى- اللينينى " وهو الطريق الوحيد لحماية الحرية واستمرار الثورة . وليس هناك طريق ثالث.. وكان أقصى مايسمح به الاستعمار بالنسبة لمصر فى ظل عالم مابعد الحرب هو استقلال شكلى أو جزئى فى فلك الغرب أو فى اطار حلف من الاحلاف ، كانت مصر وكان الشرق الاوسط كله ضرورة استراتيجية واقتصادية قصوى بالنسبة للحرب الباردة واعادة بناء اوروبا .. الذى كان يعتمد على البترول العربى .

كان الاستقلال التام استقرازا وتحديا للاستعمار القديم والجديد معا ، ولا يحجمان عن شىء فى سبيل منع تحققه.. ولكن هذا الاستقلال كان اقل ماتقبله مصر بعد سنين وحقب الامل والكفاح ، وبعد كل ماقدم من تضحيات.. كانت تبعه تحرير مصر ثقيلة دقيقة تتطلب من الشجاعة والجرأة بقدر ماتتطلب من الحكمة والحنكة وتعتمد على القدرة على شن الكفاح المسلح ، بقدر ماتعتمد على قدرة مماثلة من الكفاح السياسى والدبلوماسى .

وسواء اعترف الاستاذ الدكتور أم لم يعترف فان احدا آخر لاينكر على عبد الناصر انه قام بالمهمة ونجح فيها بادراكه لحقائق العصر وابعاده بقدر ادراكه لعناصر القضية المصرية.. وأثبت أهليته للقيادة الجديدة وأنها ماكانت تحتاجه وتنظره مصر بعد ماتهاوت وفشلت كل القيادات والقوى السياسية السابقة وتجاوزها التاريخ وسير الاحداث .

ومنذ نهاية الحرب ، ولدت مصر " جديدة " مع العالم الذى تمخضت عنه الحرب ، وكانت احزاب وتنظيمات وقيادات ١٩١٩ وما بعدها لم تعد مناسبة وملائمة .

وقد ادركت الثورة ان مصر المستقلة التى تصر على استقلالها وسيادتها كاملة ، والتى ترفض أى مساس بها وى تبعه للشرق أو الغرب ، لاتستطيع أن تأمن على استقلالها وسط القوى العظمى والاعظم ووسط صراعات وتيارات العصر المتلاطمة اذا عاشت جزيرة معزولة وسط محيط يلتف حولها من المستعمرات والمحميات ومناطق النفوذ . وانه لايد أن يكون هناك مجال حرية حيوى لابعد مدى يحيط بها ويؤمن استقلالها .

وكان الالتحام بحركة التحرر الوطنى وثورة العرب هو أول الخطوات . ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية بل وفى اليوم التالى لنهايتها مباشرة .. انفجرت الانتفاضات والثورات العربية متتابعة فى المغرب والشرق .. من الجزائر الى سوريا ولبنان والعراق .. وتداعت الفواصل والموانع التى أقيمت لعزل العرب عن بعضهم البعض واندلعت شرارات ونذر الوحدة القومية بين شعوب أمة واحدة عربية تختلف كل الاختلاف عن الوحدة " الرسمية " التى كانت بقيام الجامعة العربية.. وكانت كل الثورات والانتفاضات تبحث كل منها عن الاخرى وترى فيها امتدادا وسندا متبادلا وكانت كلها تبحث عن محور اساسى تلتف حوله طليعة وقيادة تاريخية لتقدمها ، وهنا قدمت ثورة ٢٣ يوليو كل ما كان مفتقدا.

ومنذ نهاية الحرب انتفضت شعوب آسيا وملايينها ضد الاستعمار والامبراطوريات القديمة وتنازلت الثورات عنيفة عارمة ضد البريطانيين والفرنسيين والهولنديين وامتدت الثورة الاسيوية الى افريقيا والى أمريكا اللاتينية وهى القارات الثلاث التى وقعت عليها كل وطأة الاستعمار واستنزافه.. والتى قام منها " عالم ثالث " بين العالم الغربى الاستعمارى والعالم الشرقى الاشتراكى .

وبدأت الدول المتحررة والثائرة تبحث عن " تكافل " جماعى فيما بينها ، يواجه الكتلتين، ويحمى استقلال من أستقلوا ويقف مع كفاح من لازالوا يحاربون من أجل حريتهم فالحرية واحدة لاتتجزأ والاستعمار فى أى مكان تهديد للاستقلال فى كل مكان .

وهكذا قامت مجموعة باندونج وجبهة الحياذ وعدم الانحياز . وكانت مصر أحد أعمدتها الرئيسية، والجسر المتين الذى يربط الاسيويين بالعرب وبالأفريقيين ، وكانت القيادة الفتية المتحدة فى المنطقة الحاسمة.

وبعد قيام مجموعة باندونج ووضوح اهدافها وتأكيد قوتها وقدرتها غيرت الكتلة الشرقية موقفها، ولم يعد هناك اختياران فقط امام الدول التى تحررت . واعترفت الكتلة الاشتراكية بدولتها الرئيسيتين (الصين والاتحاد السوفيتى) بالطريق الثالث وبحق كل دولة فى أن لاتتجاز لاي من الكتلتين ، وبأن هذا هو تأكيد للاستقلال وحق تقرير المصير ، ومساهمة وضمانة لتحقيق السلام ، بينما اصرت الكتلة الغربية على رفضها للحياذ وعدم الانحياز واعتباره قصر نظر بل وسياسة " لا أخلاقية " .

وكان دور مصر تغيير نظرة وسياسة الكتلة الاشتراكية رئيسيا وحاسما- فان صدق الثورة وقيادتها أفتع الاشتراكيين ان عدم الانحياز ليس انتهازية وليس مناورة " ركوب سرجين أو اللعب بحبلين " .. ولكنه تشبث بالاستقلال .. وتمسك بالارادة .. ولكل بلد وشعب طريقه وابداعه الخاص .

وبعد اعتراف الكتلة الاشتراكية بالحياذ وعدم الانحياز أصبح التناقض بينها وبين العالم الثالث ثانويا واختلافا على التفاصيل والطرق المؤدية الى نفس الاهداف .. ولهذا توثقت العلاقة بين المعسكر الاشتراكى وبين هذه الدول ، واستطاعت ان تكسر الحصار التكنولوجى والاستراتيجى الذى فرضه الغرب على العالم الثالث حتى لايتصنع أو يتسلح .

واقامت مصر وثورتها.. أوثق علاقة بهذا المعسكر وذلك لشدة وطأة التحديات ولعمق وصدق التحولات والتغييرات التى ارادتها الثورة .. وأستطاعت مصر بالسند العربى والسند الاسيوى الأفريقى ، والسند الاشتراكى الدولى ان تبنى مكانتها الدولية وان تحقق الاهداف الرئيسية للثورة .

لكن الرجعية نددت ، ويشد كل يوم هذا التنديد بسياسة الثورة الخارجية فى تلك الفترة " الناصرية " ، فهى ترى- كما يرى الدكتور فؤاد زكريا - انها كانت توسعا ومغامرة تفوق كل طاقات مصر وامكانياتها .

والرجعية معذورة فى ذلك فهى لاترى فى مصر أكثر من ضيعة خصبة يسرحون ويمرحون وينعمون بها فى كنف دولة استعمارية كبرى ، تماما كما فعلت الاسرة المالكة القديمة وباشواتها وبكواتها فى كنف بريطانيا .

ان السياسة الخارجية " الناصرية " لم تكن قط مغامرة أو توسعا ، ولكن تحقيقا للذاتية والوجود المصرى على خريطة العالم بعد غياب طويل . ومصر ليست مجرد حقيقة جغرافية كما كان يقول البريطانيون ولكنها شعب وحضارة ودولة ذات دور وتاريخ لامناص من أن تقوم به فى العصر الحديث ، بعد استعادة استقلالها وشخصيتها ، تماما كما قامت به فى العصر القديم وعلى مدى التاريخ .

والعالم المعاصر متشابك متكامل وليس هناك قضية أو مشكلة منفصلة عن باقى القضايا ولاتستطيع دولة ولا يستطيع شعب يريد ان يثبت جدارته ، وان يؤكد ذاتيته، ان يدير ظهره لصراعات ومتغيرات العالم ويتصور بهذا أنه يحتمى منها ولا بد للبلد الذى ينشد حماية حقيقية لسيادته ان يواجه العصر وان يحدد مبادئه، كما يحدد مواقفه ومصالحه، وبذلك لايتجاوز التاريخ أو يجرفه.

ان السياسة الخارجية فى هذا العصر بالذات لاتنفصل عن السياسة الداخلية. وهى حقيقة ربما كانت اشد مغزى بالنسبة لمصر.. لموقعها ومكانتها، وللمطامع . والصراعات المستميتة حولها ولتشبثها باستقلالها ومكانتها.

وقد أصبحت مصر " الناصرية " بسياستها الخارجية وبدورها العربى ودورها الاسيوى الأفريقى وبالعلاقات ومحالفتها مع قوى الثورة الوطنية والاشتراكية فى العالم ، قوة لا يملك أحد أن يتجاهلها ولا أن يمس حرمتها.

وإذا كانت قد حدثت اخطاء فى السياسة الخارجية العربية أو الدولية، فانها لم تقض علينا ولم تكسرنا، ولكنها عرقتنا وقد كانت مصر المستقلة تخرج الى العالم وتمارس السياسة العربية والدولية لأول مرة، وفى عالم معقد غير متكافىء . وكان نجاحها باهرا ولا يقاس فى شىء بالاطياء التكنيكية التى حدثت . وتكفى نظرة الى خريطة العالم العربى اليوم . حيث لم تعد الجزائر مقاطعة فرنسية، واليمن امامة من القرون الوسطى ، وليبيا ثلاث مناطق نفوذ لثلاث دول أجنبية ، والعراق قاعدة لحلف غربى .. وحيث تقف القوات العربية المسلحة قادرة فى مواجهة الامبريالية الامريكية و الصهيونية واثقة أن مصيرها لن يختلف عن مصير كل المستعمرين السابقين .

وتكفى نظرة على خريطة العالم الاسيوى الافريقى الذى ربطت مصر ثورتها بثورته ، حيث سقطت وتتساقط الامبراطوريات القديمة البريطانية والفرنسية والهولندية، ثم البرتغالية وأخيرا ومن حائق عال الامبراطورية الامريكية.

يكفى هذا ليؤكد صحة الرؤية الناصرية لدور مصر وموقعها من العالم والعصر الحديث وهو أساس سياسته الخارجية، قام عبد الناصر بثورة وطنية هدفها الاول هو الاستقلال ، وكان يكفيه دورا وفخرا انه حققه.

ولكنه أدرك منذ اللحظة الاولى أن القضية الوطنية لا تنفصل عن قضية أخرى لا تقل أهمية وهى القضية الاجتماعية ، بل وانهما وجهان لقضية واحدة .. وان تحرير مصر من الاستعمار لا بد أن يعنى تحريرها من جوهر الاستعمار وأساسه وهو الاستغلال .

والاستعمار لا يسود الارض ولكن يستغل ويستنزف الشعب ، والحرية لهذا لا تعنى فقط استعادة السيادة ولكن بناء مجتمع جديد يسترد فيه كل مصرى وقعت عليه الوطأة الاستعمارية حقوقه الكاملة.

وقد تدرجت القضية الاجتماعية من تصفية الاقطاع والرأسمال الكبير والاحتكارية، حتى تمصير الاقتصاد ورفع كل سيطرة للرأسمال الاجنبى ، حتى التأميم وعلان الاشتراكية. ذلك أن تمصير الاقتصاد لا يعنى تحريره . لان طبقة جديدة مستغلة سوف تقوم مكان الاجنبى . انما يجب أن تنتقل الثروة الى مالكيها الشرعى وهو الشعب .

ومنذ اعلان الاشتراكية أصبح تحقيقها هو جوهر كل السياسات الداخلية والخارجية. ولا تقاس مشاق التحرر الوطنى فى شىء بمصاعب التحول الاجتماعى ، خاصة فى مجتمع مثل المجتمع المضرى.. يزخر بالتناقضات ويحمل رواسب استعمارية اقطاعية رأسمالية عمرها آلاف ومئات الأعوام .

ان العقبان والصدمات محتومة دائما فى الانتقال من مرحلة الى مرحلة فى ظل واقع شديد التعقيد .. وأول من يجب أن يميزها ويراها على حقيقتها هو الفيلسوف المفكر " اليسارى " . ولكن الدكتور فؤاد زكريا ينفى ذلك تماما ويؤكد أنه لم تقم أى اشتراكية، وان ما تم لم يكن غير فاشية .

ولم يحجم الدكتور خلال تجريده للاشتراكية الناصرية من كل صفة أو مزية- عن الوقوع فى سلسلة من المتناقضات تبلغ حد العبث.

فهو يقر مثلا اننا كنا نعيش قبل الثورة فى ظل اقطاع من القرون الوسطى ورأسمالية من القرن التاسع عشر ويقر أن الثورة قد أخرجتنا منهما ، وان هناك من يريد أن يعيد عقارب الساعة الى الوراء .. أى بعد أن دفعنها الثورة الى الامام .. ولاشك أن الخروج من مقبرة القرون الوسطى وفضاعة القرن التاسع عشر كان يكفى الثورة فخرا. ولكن الدكتور يعود ليكرر أن الثورة قد سحقت المصريين، ولم تفعل سوى ان أضافت شريحة أخرى الى المستغلين و المستبدين .

ولكى يدلل الدكتور على صحة دعواه يقول اننا حتى الآن لازلنا نستعمل الالقاب .. ولو كانت الثورة اشتراكية حقا، لكانت قد استطاعت أن تمحو الالقاب محوا من ذاكرة الشعب وحياته اليومية . وهو دليل فريد بالطبع .

فالدكتور لاشك عاش ولازال يذكر العصر الذى كان المجتمع فيه ملكيا ، وكان على قمته ملك يلقب بحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم حفظه الله ، ثم يليه أمراء يلقب بعضهم بحضرة صاحب السمو الملكى ويلقب الآخرون بصاحب السمو الملكى فقط . ثم يتلوهم نبلاء يلقب بعضهم بالنبيلى فقط بلا مجد! ثم يأتى بعدهم باشوات بعضهم لا بد أن يلقب بحضرة صاحب المقام الرفيع ، وبعضهم حضرة صاحب السعادة، وبعضهم صاحب السعادة فقط ، وآخرون بحكم مناصبهم صاحب المعالى .. وتنتهى الالقاب

بالبكات، وبعضهم من الدرجة الاولى ويلقب حضرة صاحب العزة والآخر من الدرجة الثانية (صاحب العزة فقط) . ثم محيط واسع تحت كل هؤلاء من الافندية. ويذكر الدكتور أيضا انه كان هناك تجمع آخر من الاجانب بألقابهم الخاصة، تتراوح بين اللورد والسير والكونت والبارون، وأحيانا ممن يجمع بين السودد والمجد وبين كلا النوعين ، وبغير القاب، أو بالقب منتحلة ومصطنعة، كانت هناك فئات فوق فئات ، وطبقات فوق طبقات، من الاعيان والمشايخ أصحاب الوجاهة والفضيلة والحسب والنسب. ثم جيش من النفاية الاوروبية وجيش آخر من النفاية العثمانية ، لا هم مصريون ولا عرب ولا خواجات .. يتعالون على القاع الذى يرسف فيه الملايين والملايين من المصريين المسحوقين والمجردين من كل شيء .

فإذا كان لم يبق من هذا المجتمع بعد عشرين عاما من الثورة سوى لقب " بك " يستعمل مجاملة، ويموت تدريجيا، أو بعض مخلفات ترى فى ألقابها كل حياتها .. فهل هذه هى الخطيئة التى يستدل منها على فشل الاشتراكية فى مصر؟

ان العادات والعبودية تموت موتا بطيئا، اشد بطنًا مما يقدر الثوار.. وذلك كما لا بد وقد درس الدكتور فى علم الاجتماع .

على أن الدكتور لا يكتفى بهذا، وانما يقدم دليلا قاطعا آخر على فشل الاشتراكية وهو الاستقبال الذى لقيه نيكسون فى مصر.

وهنا يخرج الدكتور بنتيجة دامغة ومبتكرة ، وهى ان استقبال نيكسون كان استفتاء شعبيا على رفض الشعب للاشتراكية و الثورة " الناصرية " عامة .

ولا ينتهى الدكتور الى الوجه الآخر للنتيجة . وهو أنه اذا كان الشعب قد صوت باستقبال نيكسون ضد الاشتراكية ، فلا بد وأن يكون قد أعلن ثقته وايمانه بالرأسمالية و الامبريالية الأمريكية .

وحينئذ لا بد أن نعيد النظر فى كل تاريخنا الحديث القريب والبعيد ، ويصبح لا معنى لأن نترك قواتنا المسلحة فى مواجهة هذه الامبريالية فى رمال الصحراء ، ويصبح علينا أن نبحث عن حقيقة الشعب المصرى " الآخر " الذى عاش فى معركة متصلة مستميتة طوال عشرين عاما - ومنذ الثورة حتى الآن- ضد هذه الامبريالية والرأسمالية !

ان من المؤسف حقا أن أول من قال بهذه الدعوى ، وسبق الدكتور فؤاد زكريا اليها، كاتب مبتذل من كتاب احدى المجلات الأسبوعية ، وقف على أبواب كل الحكام ، وأثبت ومجد كل شيء قالوه .. وقد نقله عنه وتبعه رتل من الكتاب الساقطين، وجعلوا منه حجة ثابتة فى جعبة اليمين .

وإذا كان الدكتور الفيلسوف قد ارتضى أن ينقل هذه الفكرة ويرفعها الى مصاف الحجج الفكرية على فساد الاشتراكية وفشلها.. فاننا نسأله وفق أى منهج وأى منطق؟ ولا بد أن يقدم لنا الدكتور بجرأته وموضوعيته تحليلا كاملاً لظاهرة استقبال نيكسون .. وكيف ننتهى الى هذه النتيجة!

على أن الأجدى من هذا أن نعود الى موضوعنا.

ان عبد الناصر لم يقل، ولا أحد من الناصريين أو الماركسيين ، أن الناصرية قد أقامت المجتمع الاشتراكي النموذجي فى مصر، أو قدمت الحلول المثالية لكل المشاكل، أو حققت كل الآمال التى عقدت عليها- ولكن ما يؤيدونه ويؤكدونه هو ان الاشتراكية هى الطريق الصحيح والوحيد، وان الاشتراكية طريق عسير وكفاح متصل من أجل تعميق الفكر وتصحيح التطبيق المستمر!

وما أبداه الناصريون والماركسيون وكل الوطنيين المستنيرين ، ولا بد أن يؤيدوه دائما هو أن الثورة حينما كان عليها أن تختار اختارت الاشتراكية وأعلنت فى ميثاق وطنى عام بينها وبين الشعب ان الاشتراكية التى تختارها هى الاشتراكية العلمية . ليست اشتراكية شكلية أو مجرد واجهة وشعارات، وانما اشتراكية تؤمم المواقع الرئيمسية للثروة ، وتعترف بالصراع الطبقي ، وتبدع طريقا خلاقا وسليما لمواجهة.

وقد قامت الاشتراكية المصرية فى مجتمع معقد ، هو أقدم المجتمعات " الطبقيه " فى التاريخ ، وكياناته وعلاقاته ورواسبه الطبقيه قديمة.. قدم الصراع الانسانى كله .

وقامت الاشتراكية المصرية فى قلب منطقة تستميت الرأسمالية العالمية لضرب الاشتراكية فى مصر. وقد يكون تكرارا البترول والاستراتيجية الكونية، وتفعل أى شىء فى سبيل أن لا تقوم أو تنجح اشتراكية فيها، وخاصة فى أهم دولها.

وقد كانت حرب ٦٧ ذروة محاولات الرأسمالية العالمية لضرب الاشتراكية فى مصر. وقد يكون تكرارا مملا أن تحدد ما حققته الاشتراكية مساحة الأرض التى وزعت والأرض التى استصلحت، وما غيرته فى حياة الريف وحياة الفلاح أو عدد المصانع التى أقيمت وما فعلته فى حياة العمال أو عدد المدارس والمعاهد والكليات وما أثرت فى حياة مصر الثقافية أو عدد القوات المسلحة التى تكونت وما منحته من ثقة. هذه احصاءات يعرفها الجميع. ولا بد كان الدكتور أول من يجب أن يراجعها قبل أن يعلن بيانه وتقييمه. لن نكرر احصاءات معروفة ولكن لا يستطيع أحد أن ينكر على الثورة انها ألقت بذور الاشتراكية فى مصر، بطول البلاد وعرضها. فى القرية والمدينة والصحراء. وانها أعلنت حتمية الطريق الاشتراكي وقدرة الاشتراكية على حل المشاكل، وان لا حل سواها، وانها تركت لهذه البذور أن تنمو فى أحصبا تربة للاشتراكية.

ولا أحد ينكر أن الاشتراكية قد دكت المجتمع القديم. الظالم من أسسه، وبددت الخرافة التى كانت تجعل منه المجتمع الوصى والابدى الازلى. وأكدت فى نفوس الملايين ان المجتمع الظالم ليس هو طبيعة الاشياء، وان من الممكن استبداله بمجتمع كفاية وعدل.

لقد قدمت هذه الاشتراكية " الأمل "، حتى اذا لم تكن قد قدمت الفائدة الملموسة كاملة. وعمر الاشتراكية فى مصر- على أى حال- لا يزيد عن ١٤ عاما منذ اعلان القوانين الاشتراكية. وربما كان عمرها الصحيح ست سنوات حتى حرب ١٩٦٧ وهى كانت أفسى امتحان لها، التى وضعت مصر أمام تحد قلب كل الخطط والمشاريع.

ومن حق الدكتور أن ينكر أنه كانت هناك اشتراكية، أو انها حققت شيئا، ولكن أفضل الاقتصاديين فى مصر - وطنيين أو اشتراكيين أو ماركسيين- يعترفون بأن القطاع العام الذى أقامته الاشتراكية هو الذى مكن مصر من الصمود اقتصاديا خلال المحنة الكبيرة.

ويعترف أفضل الاقتصاديين من كل الاتجاهات " الوطنية " أن ما حققته مصر من تنمية فى ظل الاشتراكية هو أضخم تنمية حققتها فى تاريخها الحديث كله، أى منذ تفتحت على الحضارة المعاصرة أيام محمد على.

واذا كان الدكتور زكريا يمجد العبور، ويرى فيه بعث الانسان المصرى الذى سحقته " التجربة الناصرية " فان العسكريين الذين قادوا هذا العبور والذين يعرفون أسراره بأفضل مما يعرف، أعلنوا أنه لولا القطاع العام الذى أقامته الاشتراكية لما أمكن العبور والانتصار!

ولاشك أن الدكتور فؤاد زكريا لم يزر قط قرى الاصلاح الزراعى، ولم يشهد ذات يوم اجتماعا فى قصر الأمير كمال حسين فى نجع حمادى، بين الفلاحين الذين وزعت عليهم أرضه، وبين أعضاء مجلس الشعب ورجال الاصلاح الزراعى. وهو ما لم يحلم به فلاح فى يوم من الأيام..

ولا شك أن الدكتور لم يزر قط مجمع الالمونيوم فى نجع حمادى أيضا، ليرى كيف ينتقل مجتمع من الاقطاع أو ما قبله الى عصر الصناعة الاشتراكية رأسا. وبالطبع لم يزر السد العالى أو مصنع السكر فى ادفو أشد مناطق مصر فقرا فيما مضى.

ولا شك أن الدكتور لم يقرأ ما ينشره طلبته وطالبة الجامعة التى يقوم بالتدريس فيها على جدران كلياتهم. وهم الجيل الذى انجبتة الثورة، والذى يتدفق حيوية وحرارة وايجابية حتى فى سخطه ورفضه وتمرده. أنه بالتأكيد جيل لم تسحقه الثورة كما يؤكد!

وحيثما كان الدكتور طالبا فى الجامعة كانت هناك- جامعتان فى القاهرة والاسكندرية، أما الآن فتنشر الجامعات والكليات فى أرجاء مصر. فى أسوان وأسيوط والمنيا وفى طنطا والمنصورة والزقازيق. والنظام الذى يسحق الشعب أو يضع هذا من هدفه لا يفتح هذا العدد من المدارس والجامعات.

وقد كان واجبا علميا على الدكتور قبل أن يلقي بأرائه القاطعة الجارفة أن يطوف المواقع وأن يرى الحياة على الطبيعة، وأن " يمسح " التحولات بدقة، وأن يراجع الأرقام والأحصاءات.

والا فما هي المراجع التي استنبط منها أن كل ما فعلته الثورة هو اضافة ٤.٥% الى الطبقات القديمة وكيف سمح له ضميره العلمي أن يلقي بهذه الحقيقة متحديا بهذا كل التحولات التي حدثت في المجتمع وكل احصاءات العمال والفلاحين والطلاب الذين تكونوا .

وهناك اتهام تقليدى توجهه الطبقات المخلوعة ضد الاشتراكية في كل مكان وهو انها خلعت الطبقات القديمة لا لصالح عامة الشعب ولكن لتحل طبقة جديدة محلها . وانها اضافت شرائح أخرى من الثوار تحولوا الى بورجوازيين .

وقد ردها الاستاذ الدكتور بدوره !

وقد وجه نفس الاتهام الى كل الثورات الاشتراكية في المعسكر الاشتراكي أو فى العالم الثالث، بلا استثناء.

ان الطبقة الجديدة حقيقة ، ولعنة، وهى تصاحب الاشتراكية دائما، وفى مراحل منها، وهى مشكلة واجهت الاتحاد السوفيتى والصين ويوغوسلافيا كما تواجه كوبا أو مصر أو غينيا . فاستيلاء الثوار على السلطة يغرى بعضهم بسوء استغلالها، وتعمل الطبقات القديمة بكل ماتستطيع على اجتذاب وافساد أكبر قدر من الثوار لتثبت دعاويها ولتتمد فى أجلها .

ولكن الطبقة الجديدة ليست " طبقة " بل هى مجرد فئات أو شرائح صغيرة . وهى تنتهى دائما باستمرار الثورة ، وان الاشتراكية تنتج دائما القوى التى تصحح أخطاءها وعثراتها، والثورة الدائمة هى المصل المضاد للطبقة الجديدة أو الوسيلة لحصارها وتصفيتها. والاشتراكية لا تتحقق سهلة يسيرة . وانما هى صراع جدلى يستمر طويلاً بين المجتمع القديم والجديد .

وربما يستطيع الدكتور أن يعدد مائة عيب وعيب للثورة والتجربة الاشتراكية ويوافقه كثيرون عليها، ولكن فرق بين تعداد العيوب للتشفى أو لنفى وهدم الثورة ، وفرق بين كشفها لتلافيها والمضى والاستمرار بالثورة .

وفرق بين نقد اليساريين- كما حدث- للوصول الى الطريق والحلول الأفضل ونقد الاستاذ الذى لا ينقد بل يصم ويندد والذى لا يصل الى العيوب الحقيقية ولكن يظل دائما على السطح ويقصد الاثارة.

ويمكن أن يقال فى اطار النقد أن الاصلاح الزراعى فى مصر ورغم ثلاثة اصلاحات أساسية وجوهرية الا أنه مكن بعض الاقطاعيين والملاك والموظفين من التلاعب بنصوصه وبنوده وأن مسئولين اقطاعيين فى أعلى المستويات قد أشرفوا على تنفيذه وأن موظفين بيروقراطيين خدموا الملاك دائما قد قاموا بتطبيقه وأن الاصلاح الزراعى المصرى نفذ فى أغلب المناطق تنفيذاً اداريا وليس سياسيا وشعبيا قائماً على تعبئة الفلاحين واستنفارهم لاسترداد حقوقهم وحراستها ، وهذا الاسلوب الادارى احتوى بالطبع الكثير من ثورية الاصلاح الزراعى التى كانت منتظرة والكثير من عمق وأصالة التحول وانه منح القوى الرأسمالية والمالكة فى الريف مجالا واسعا للمناورة.

وقد يقال أن حد الملكية الاقصى فى الاصلاح الزراعى لازال كبيرا بالنسبة لعدالة توزيع الارض الواجبة فى مصر وكثافة السكان فى الريف وأن استصلاح الاراضى لا يتم بالسرعة الواجبة، وأن الارض المستصلحة لا تذهب الى الفلاحين الفقراء والمعدمين كما يجب أن تذهب . ولم تدر على الطريقة العصرية الاشتراكية كمزارح جماعية أو تعاونية ، ولكن اختلس الكثير منها ملاك ورأسماليون ومضاربون و انتهازيون .

ويمكن أن يقال أن التعاون الذى نص عليه قانون الاصلاح لم يرق ويذهب كحركة شعبية اشتراكية نابعة من الفلاحين منهم واليهيم ولكن ظل حكوميا روتينيا حافلا بالثغرات يهيمن عليه الموظفون وأعيان الريف. ولا يفيض بالروح التعاونية التى يجب أن تكون أساسه وحافزه الأول .

ويمكن أن يقال أن النقابات الزراعية لم تتكون كما يجب أن تقوم وانها لم تضم العمال الزراعيين ولم تستقطب العمال المعدمين عمال التراحيل وهم بؤرة شقاء مصر ولم تقدم حلا جذريا لهم .

يمكن أن يقال هذا وأكثر منه. ولكن يظل هذا تفاصيل المصاعب الطبيعية التى واجهت معظم الثورات والتحولات وتبقى تحديات علينا أن نضيفها ونتخلص منها. ولكن الاساس قد حدث وتحقق . سقط الاقطاع وتحرر الفلاح ورفع رأسه ولم يعد ممكنا أن يستغل أو يستعبد .

وفي الصناعة ربما يقال أن الخطط لم تكن سليمة تماما . انشئت مصانع فى الموقع الخطأ وبالأ سلوب الخطأ وبالتكاليف الخطأ وسلمت المؤسسات و الشركات التى تأممت الى موظفين وأحيانا الى رأسماليين لا يريدون الاشتراكية وانما يقاومونها .

وقد يقال أن كثيرا من اللوائح والأساليب الاشتراكية فى الإدارة و الانتاج قد أهدرت . ولم يتكون الكادر الاشتراكي الفنى والإدارى ، ولم تمنح الطبقة العاملة الدور النقابى والسياسى الذى كان يجب أن يكون لها فى إقامة وإدارة الصناعة .

ولكن تظل هذه أيضا تفاصيل ومشاكل لا تستعصى على الحل . ولكن الهدف الرئيسى قد تحقق، سقطت كل دعاوى الامبريالية و الرأسمالية، وقامت مصر الصناعية. وتحققت الثورة الصناعية فى ظل الاشتراكية واقامت قاعدة صناعية هى الأساس لكل البناء .

وربما كان عدد المدارس فى مصر أقل مما يجب وكانت مرتبات وأحوال المدرسين أقل مما ينبغى وربما كانت المناهج متخلفة والمعاهد والكليات والجامعات مفتقرة الى الكثير من المقومات . ولكن تبقى كل هذه أيضا تفاصيل . والمهم ان الشعب قد انتزع حقا حرم منه سنين وقرون هو حق التعليم ، وتعلم عشرات الألوف من أبناء الفقراء والعمال والفلاحين وعلى هؤلاء الذين تخرجوا وتسلموا التبعة أن يسدوا كل الثغرات وأن يصححوا كل الأخطاء التى عرفوها وعانوا منها .

وقد عقد الاستاذ الدكتور مقارنة ساذجة وظالمة بين عبد الناصر وستالين ومع ذلك فقد قال ذات يوم واحد من أشد خصوم ستالين " لقد أدخل ستالين روسيا الى المدرسة" وكان هذا فى رأيه يجب ويغفر كل شىء، فقد انجبت المدرسة السوفيتية الجيل الذى تدارك كل الاخطاء الستالينية. وقد كانت المدرسة السوفيتية فى عصر ستالين أسوأ بكثير من المدرسة المصرية فى عصر عبد الناصر إن صحت المقارنة.

ان كل العيوب ثانوية. ولكن المهام التاريخية للاشتراكية قد تحققت. سقط الاقطاع والرأسمالية وانتقلت مواقع الثروة الأساسية الى الشعب . وقامت مصر الصناعية العسكرية المثقفة ونما جيل جديد انتقلت اليه تبعة استكمال المسئولية.

تبقى قضية الديمقراطية

لأنه لم تكن هناك اشتراكية فلم تكن هناك ديموقراطية. والعكس أيضا !.

هكذا لخص الدكتور فؤاد زكريا " التجربة الناصرية " كل شىء كان زائفا وكاذبا.

وقضية الديمقراطية هى أهم قضايا العصر. ولكنها أيضا ذريعة ، وباسمها ترتكب الجرائم والخطايا. فالديموقراطية مثلا هى الشعار الذى ترفعه الرأسمالية والامبريالية الجديدة فى حربها ضد الثورة الوطنية والاجتماعية فى العالم الثالث ، وضد الاشتراكية فى المعسكر الاشتراكي ، فهى تزعم أن معركة العصر هى معركة بين الديمقراطية وبين الشمولية ، وليست بين الرأسمالية والامبريالية وبين الحرية والاشتراكية.

والديمقراطية التى تعترف بها وتتخذها نموذجا يحتذى للعالم الثالث هى ديموقراطية فرموزا، فى ظل تشيانج كاي شيك ، أو ديموقراطية فينتام الجنوبية فى ظل " ثيو " ، أو ديموقراطية كوريا الجنوبية وأخيرا وليس آخرا ديموقراطية اسرائيل .

ولكن النظم الأخرى ، نظم عبد الناصر فى مصر أو سيكتورى فى غينيا أو " سوكارنو " فى أندونيسيا فهى نظم ديكتاتورية شمولية شيوعية لابد من مقاومتها لاجل الديمقراطية!

والديموقراطية كانت الذريعة التى انشقت بها الحركة الاشتراكية الدولية بمساهمة القوى الرأسمالية و الاستعمارية، و انقسمت الى أحزاب اشتراكية ديموقراطية تهاجم الأحزاب الاشتراكية اليسارية و الأحزاب الاشتراكية الماركسية بحجة واحدة : هى افتقادها أو عدوانها على الديمقراطية .

وقد انتهت الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية فى حماسها للديموقراطية الى الانحياز الى الرأسمالية الامبريالية واصبحت احزابها الكبرى (حزب العمال فى بريطانيا والحزب الاشتراكي الديموقراطى فى المانيا الغربية والحزب الاشتراكي الديموقراطى الايطالى) هى طليعة ودعامة التحالف الرأسمالى الذى تقوم عليه الرأسمالية الجديدة فى الغرب .

ان الديمقراطية فى البلاد التى عانت الاستعمار والاستغلال الاجنبى لابد ان تبدأ أولا بالديموقراطية الاقتصادية والاجتماعية ، وتصفية العهد القديم بكل كياناته و علاقاته .
لايمكن ان تقوم ديموقراطية فى ظل الامية أو المجاعة أو المرض أو البطالة.. واغلبية سحقها الاستبداد والاستغلال .

ولم يكن هدم المجتمع القديم ليتم بالحوار والاقناع . كان لابد من العنف والقهر لطبقات قهرت واذلت الشعب طويلاً- وكان لامناص مرة لسوء الحظ- أن يمتد القهر ويتجاوز حدوده فى التطبيق .. ولكن مهما كانت الاخطاء التى حدثت فانها لاتبرر اتخاذ اليمين لها ذريعة للتنديد بالثورة .
ان تجاوز الشرعية حدث فى كل الثورات بلا استثناء فى الشرق أو الغرب . والثورة ليست حفلة وانما صراع قوى .. هائل .

ان ماحدث فى مصر لايقارن فى شىء بما حدث فى ثورات أخرى غربية أو اشتراكية أو عربية لا يقاس في شىء بما حدث فى الثورة الفرنسية والروسية وفى الثورة الجزائرية أو الانتفاضات العراقية.
وان ما حدث من تجاوزات ينبغى ان لا يؤخذ وسيلة لانكار كل ماحققته الثورة أو تكتة للدعوة الى عودة "عقارب الساعة الى الوراء " .

ثم ان اليمين المصرى لاحق له فى الحديث عن القهر والتعذيب فقد حكم طويلا .. وتمخض حكمه عن ٩٩% من الشعب فى ادنى درجات الانسانية . وليس هناك قهرا أو تعذيب اشد من هذا.
وتجاوزات القانون والشرعية تعنى أول ما تعنى البحث عن افضل شكل لديموقراطية اشتراكية لا تنفصل فيها الديمقراطية السياسية عن الديمقراطية الاقتصادية أو الديمقراطية الثقافية وهى لاتعنى قط اعادة الديمقراطية الرأسمالية أو سيادة القانون " البورجوازي " .
ان ما حدث من تجاوزات كان حالات واستثناءات لم يكن القانون ولم يعلن الارهاب العام ولكن انحرافات وشذوذا ومن الافتراء الاستناد اليها .. للقول بأن هذه هى الناصرية وانها بهذا سحقت مصر والمصريين.. كما تفضل الاستاذ الدكتور .

ويشتهر الفلاسفة عادة بالنسيان أو ضعف الذاكرة.. ان الحقائق العليا التى يستغرقون فيها تنسيهم دائما الحقائق الصغيرة .. أو الجزئية.

وفى نوفمبر سنة ١٩٧٠ كتب أحدالفلاسفة المفكرين يعدد مزايا ثورة عبد الناصر فقال " قبل عام ١٩٥٢ كان التفكير فى العدالة الاجتماعية يتخفى ويتسرب تحت الارض وكانت الاشتراكية معنى محرما تعاقب عليه قوانين الدولة الرسمية . وكانت الملكية الخاصة سواء منها الزراعية والصناعية حقا مقدسا لا يمس ، مهما بلغ مقدار استغلالها أو وقفها فى وجه النمو المنطلق للمجتمع . وكانت أبواب البلاد مفتوحة على مصراعها امام الاستثمارات الاجنبية، دون ان يتساءل احد عن مدى التعارض بين هذه الاستثمارات وبين رغبتنا فى تنمية اقتصادنا على نحو مستقل أما اليوم فان الاشتراكية والعدالة الاجتماعية هي السياسة الرسمية للدولة. والاقتصاد الوطنى يعرف كيف يميز بين المساعدة الآتية من الاصدقاء وبين الاستغلال الذى يعوق نموه . والملكية الخاصة قد تكشفت وظيفتها الاجتماعية ، ولم تعد تحاط بهالة القداسة التى كانت تمنع المجتمع حتى من تقليم أظافرها .

وقبل عام ١٩٥٢ كان التفكير فى الحياد حتى لو كان سلبيا يعد ضربا من المغامرة وكان فكر المعسكر الاشتراكي من الممنوعات المحرمات. وكانت حركات التحرر الوطنى بعيدة عن فكرنا لان اهتمامنا كله كان منصبا على الاحتلال المباشر الذى يجثم فى قلب اراضينا. بل كانت مجرد الدعوى الى السلام تعد- بطريقة ياباها المنطق ويستنكرها مجرد الاستخدام السليم للألفاظ - دعوة هدامة. واليوم أصبح الحياد الايجابى معسكرا كاملاً نقف نحن على رأسه . وتحولت هذه الايجابية نتيجة لسلسلة متلاحقة من الظروف الضاغطة ، الى فهم وادراك للطابع العدوانى للرأسمالية العالمية ، وتفاهم متزايد مع المعسكر الاشتراكي، وتضامن وثيق مع الحركات التحررية فى العالم الثالث .

وهذه هى الوقائع الموضوعية. وبناء على هذه الوقائع تغير تفكيرنا وأصبحت له اسس ومحاور جديدة.
ولما كانت هذه الاسس تستجيب لرغبات شعبية طاغية ، فقد أصبح الجميع يتبنون شعاراتها ، ويجهرون بالدفاع عنها ، ويتقربون الى الناس عن طريقها " .
واستطرد الفيلسوف المفكر ليقول :

" على الرغم من الانحرافات الفكرية، فان هناك حقيقة واحدة : وهى ان الجميع ينادون بالشعارات الاشتراكية. وهذا يعد فى ذاته تقدما هائلا. لان هذا الاجماع يعكس تعلقا شديدا وشاملا من الشعب بالمعاني التى تعبر عنها هذه الشعارات ، بحيث يكون التراجع عنها فى المستقبل ضربا من المستحيلات . وفى هذا التعلق الشعبى الكامل بمبدأ الاشتراكية ، واضطرار القلة التى لاتؤمن بها أو لاتفهمها الى صياغة افكارها فى اطار ظاهرى من هذا المبدأ ذاته .. فى هذا مايؤكد ان الوصف الصحيح لموقفنا الفكرى بعد غياب القائد هو الامتلاء لا الفراغ !

" ومن المؤكد ان للامتلاء مشكلاته ولكنها ايا كان تعقيدها ليست مشكلات ولدها الهزال والعقم، كما يتصور أصحاب نظرية الفراغ . وانما هى مشكلات تولدت عن الخصوبة والثراء والتنوع الفكرى الذى لا بد ان يتميز به العصر الذى نجد أنفسنا على أبوابه " .

وهذا الفيلسوف المفكر - سنة ١٩٧٠ هو نفس الدكتور فؤاد زكريا سنة ١٩٧٥ .. وهو قد نسى ان يبين لنا فى بحثه عن اليسار المصرى وعبد الناصر.. ماهى الوقائع الموضوعية التى بناء عليها تغير تفكيره وأصبحت له أسس ومحاوَر جديدة .

.. ولقد قال الدكتور فى ذلك البحث أيضا :

" ان التحدى الذى يفوق كل ماعداه أهمية فى هذه المرحلة هو مواجهة مؤامرات دعاة الارتداد والتراجع أولا " .

ولا نظن ان الوقية بين اليساريين أو وصم التجربة الناصرية اليوم هى أفضل مواجهة لذلك الارتداد . ولا نظن أيضا.. ان الحياة الاستهلاكية الرغدة فى الكويت حيث يعمل الدكتور ويبعث بأحكامه وحكمه.. هى أفضل موقع لمواجهة دعاة الارتداد الذين يتكاثرون فى مصر الآن كالجراد . ونسأل الله ان يطيل اعمارنا حتى نقرأ رأى الدكتور فيما يجرى الآن .. سنة ١٩٩٥ ونحى شجاعته وموضوعيته.

رد على الرد

لا بد ان يحسد المرء الدكتور فؤاد زكريا على قدرته وجرأته والاسم الصحيح تبججه. وقد كان الدكتور ولازال يرى نفسه ذكيا نقيًا ناصع النفس والقلب ، بينما كل الآخرين مفتريين سطحيين.. اراهيبين جمعهم كلهم العدوان عليه وعلى الحقيقة . وقد تكاثرت سبعة منهم على الاستاذ الراهب العاكف على الحق وعلى اظهاره وأرادوا النيل منه وطمس النور الذى خرج به على الناس . وتختلف القصة بعض الشيء .

قال الدكتور فى بداية البداية انه أصلح من يحكم على " العهد الناصرى " وأحكمهم وأشدهم نزاهة لأنه كان فوق ذلك العهد ولم يرتبط به ، ولم يضار منه، ولم يستفد أيضا فائدة غير مشروعة ولم ينتهز فرصة.

وكان الدكتور خلال العهد الذى أثار الجدل حوله.. ولسنوات.. رئيس تحرير مجلة الفكر المعاصر.. الى جوار عمله كرئيس لقسم الفلسفة فى الجامعة .. ولم تكن مجلة الفكر المعاصر هى مجلة المعارضة ضد هذا النظام .

ولم تكن أيضا مجلة المقاومة السرية ولكنها كانت منبرا رسميا شرعيا من منابر فكر " التجربة الناصرية " . وكانت تصدر عن وزارة الثقافة المصرية وبأموالها ، وكانت رسالتها الدعوة الفكرية واثراء وتفسير التجربة القائمة فكريا وتعبئة المثقفين حولها .

وفى دولة بوليسية اراهيبية تخرب روح الانسان المصرى وتسحقه كما يقرر الاستاذ .. لا يختار أى أحد لرئاسة هذا النوع من المجالات ولا بد ان يكون من يقع عليه الاختيار محل ثقة مطلقة للقوى التى كانت تحكم كل شىء خاصة حياة وحرية الفكر والمفكرين .

ولم يقل الدكتور أو يصرح انه أرغم ارغاما على المنصب وبهذا يكون قد قبله راضيا . ولما كانت المنافسة حامية فى ذلك الوقت حول مثل هذه المناصب فلا بد أن الدكتور قد سعى سعيا حقيقيا اليه ولا بد انه قد فاز به بصلات وعلاقات وسمعة حسنة لدى المسؤولين والحكام .

ولهذا.. ليس هو أفضل الناس وأنزههم لكى يحكم على التجربة من أعلى !

ولانظن أن أستاذا ومفكرا يرأس تحرير منير رئيسي من منابر فكر ثورة ودولة ويظل طويلا فى هذا المنصب ، يمكن ان يكون رافضا ومعاديا للثورة والدولة معا .. منذ البداية حتى النهاية- كما يقرر الآن

ورئيس تحرير مجلة فكرية ذات رأى ورسالة معينة لا بد له اذا كان يحترم نفسه- ان لايقبل المنصب الا اذا كان مقتنعا تماما وموافقا تماما . ولا يمكن لمفكر خاصة اذا كان فى مثل حرص الاستاذ على فضائله.. ان يعيش ويعمل بقلبين وعقلين .

ولكن ظلت " الفكر المعاصر " برئاسة وتوجيه الدكتور تؤدي مهمتها بنشاط وحماس ولزمن طويل .. لم يشعر خلاله الدكتور بأى قلق أو ازمة ضمير!

وحيثما مات رجل التجربة وبطلها.. لم يقدم الدكتور استقالته ويتنفس الصعداء .. ولم يصمت أو يسكت تكفيرا عن الخطيئة التى تورط فيها . ولكن خرج بعمل فكرى نافذ هو عدد خاص من المجلة عن عبد الناصر يقيم البطل الذى ذهب وثورته وكل شىء عن حياة وفكر ودور عبد الناصر.

" مفهوم الثورة فى فكر عبد الناصر "

" دور الممارسة فى فكر عبد الناصر "

" شخصية القائد ووحدته الفكرية "

" الثورة المصرية ومعنى الانتماء العربى "

" الاشتراكية العلمية فى الفكر الناصرى "

" الناصرية والعالم الثالث "

" شخصية القائد من شخصية مصر "

" جمال عبد الناصر ومفهوم البطل فى التاريخ "

وهذه لم تكن مرأى عاطفية أو انفعالية ولكن دراسات وابحاث عن مغزى الثورة ودور عبد الناصر فى التاريخ وتغييره .

وقد عرضت كلها ولاشك على رئيس التحرير ووافق عليها لكى تطبع وتنتشر.. وتحمل بذلك مسئوليتها. وليس هناك رئيس تحرير مجلة فكرية يحترم نفسه ينشر فى مجلته دراسات مناقضة تماما لرأيه ولرأى المجلة بغير أن ينص على أنها تعبر عن رأى كاتبها فقط .. ورؤساء تحرير المجلات والمنابر الفكرية خاصة الرسمية الذين يصنعون عادة هيكل العدد وينسقونه ويختارون الكتاب ثم يراجعون كل ما قدم لكى ينتقوا ما ينشر.

وليس هناك رئيس تحرير.. ومفكر صارم النزاهة مثل الدكتور يرضى أن ينشر فى مجلة يرأس تحريرها رأى أو فكر زائف أو مفتعل منافق أو يرضى لنفسه أن يتصل بعد زمن من مسئوليته عنها.

وقد جاء فى مقال بقلم احد المفكرين واساتذة الفلسفة الدكتور يحيى هويدى :

" عبد الناصر هو صانع مصر الثورة .. مصر المعاصرة ، مصر العصرية مصر العربية مصر الاشتراكية التى على طريق الاشتراكية واذا كان من الحق ان نقول ان الطاقات التى فجرها فى شعب مصر كانت كامنة فيه فمن الحق أيضاً ان نقرر أنه هو الذى جعلها تنبثق فى صورة جديدة وفى اطار جديد حتى خيل الينا معها اننا نراها لأول مرة وهذا الأسلوب الجديد فى الفكر والحياة الذى قفزنا اليه بوجود الزعيم بيننا هو الذى يجعلنا لانكتفى بالقول بأن عبد الناصر قد اعاد الينا الروح بل علينا ان نقول انه اعادها الينا متفتحة وذلك لان الروح قد تعود الى الافراد والشعوب وتظل مع هذا فى حالة ركود نعسانة اسوانة، وقد تتفصص فى عودتها مخلوقات شوهاء وقد تعود على العكس من ذلك فى حالة من التفتح والازدهار وليس من شك فى ان عودة الروح لشعب مصر على يد عبد الناصر تجسدت فى تلك الزهور الكثيرة المتفتحة والبراعم التى تنبض بالحياة والتى سقاها هو من افكاره وآماله شرابا طهورا ولعل هذا هو أثمن ما خلفه لنا "

وفى مقال آخر عن الاشتراكية والعلم والفكر الناصرى وفى دراسة طويلة عن تطور فكر الثورة وعبد الناصر قال أستاذ كبير، الدكتور فؤاد مرسى :

" هذه محاولة سريعة لاقتفاء خطى وتحديد معالم مفهوم الاشتراكية العلمية عند جمال عبد الناصر وليس لى فضل فيها سوى كتابتها لان صاحبها على الأرجح هو جمال عبد الناصر نفسه، وكأى مفكر كبير هو

في الوقت ذاته قائد الثورة ورجل الدولة ومن ثم كان شخصية غنية متعددة الجوانب . فيلسوف تخرج عنه تفسيرات شتى تذهب فيه مذاهب متعددة وبالطبع فأنما أقدم اجتهاده الشخي هنا .. أنني أقدم فهمي الخاص لمفهوم عبد الناصر في موضوع بالغ الاهمية والخطورة هو موضوع الاشتراكية العلمية وفي تقديرى أن عبد الناصر وقد اكتملت صورته يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ قد صار ملكا للتاريخ والبشرية جمعاء لا يستطيع أن يحتكره أحد .

" ولقد حاولت ان اتبع كل ما قال أو كتب منذ ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وبخاصة حتى حرب يونيو سنة ١٩٦٧ حين غطت قضية تحرير الارض المحتلة على القضية الاجتماعية وقد تبينت ان اهم الوثائق التي تحمل فكر عبد الناصر في الاشتراكية العلمية هي من حيث الترتيب الزمنى : اقواله في جلسات اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية ثم ميثاق العمل الوطنى ثم أقواله في جلسات المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية ثم حديثه في جلسة افتتاح دور الانعقاد الثانى لمجلس الامة فى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٦٤ ومن الممكن ان نضيف بيان ٣٠ مارس ، كتصوير اخير لوضع القضية الاجتماعية في اطار احتدام المعركة الوطنية " .

وبعد دراسة منهجية ينتهى الاستاذ الى : " اية خسارة فادحة حلت بالاشتراكيين بفقد هذا المعلم العظيم الذى دأب بصبر وجلد نادرين على تبسيط ونشر حقائق الاشتراكية على جماهير شعبنا طوال هذه السنين .. لقد كان أول معلم نقل الاشتراكية الى وعى ملايين المصريين " وهو كلام وقع عليه ووافق الدكتور فؤاد زكريا لى ينشر فى مجلته .

وفى دراسة حول نفس الموضوع لاستاذ آخر معروف هو الدكتور ابراهيم سعد الدين يقول : " يعلن الميثاق ان الاشتراكية العلمية هي الصيغة الملائمة لايجاد المنهج الصحيح للتقدم وان أى منهج آخر لا يستطيع بالحق أن يحقق التقدم المنشود .

" وقد اصر عبد الناصر دائما على تأكيد ان الاشتراكية العلمية هي منهجنا وانه لا منهج سواه يمكن ان يؤدي الى تحقيق التقدم والقضاء على التخلف .

" وفى مناقشات الرئيس فى اللجنة التحضيرية وفى المؤتمر القومى للقوى الشعبية يشير الى ضرورة الدراسة العلمية لمشاكل مجتمعنا باعتبارها الاساس الوحيد الصحيح لاستنباط الحلول الصحيحة لمشاكل المجتمع وتبين التأكيد على علمية الاشتراكية باعتبارها صفة اساسية للمنهج الاشتراكي الذى يطبق فى الجمهورية العربية .

" وقد صدر الميثاق بعد فترة من التجربة قاربت عشر سنوات وصفها عبد الناصر فى مناقشاته فى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية بأنها كانت فترة تجربة وفترة ممارسة . كانت فترة مشينا فيها بالتجربة والخطأ ذلك لان الشعب الثورى بدأ زحفه الثورى كما يعلن الميثاق " من غير تنظيم سياسى يواجه مشاكل المعركة كذلك فان هذا الزحف بدأ من غير نظرية كاملة للتغيير الثورى .

فالمبادئ الستة التى نحتتها ارادة الثورة من مطالب النضال الشعبى واحتياجاته لم تكن نظرية عمل ثوري كاملة ولكنها كانت فى تلك الظروف دليلا للعمل يمثل الارادة الثورية ، وقد تطورت هذه المبادئ الستة بفضل النضال الشعبى الذى راح يحركها بالتجربة والممارسة وبالتفاعل الحى مع التاريخ القومى تأثرا به وتأثيرا فيه نحو برنامج تفصيلى يوضح طريق الثورة الى اهدافها اللامتناهية . والميثاق على هذا الاساس هو دليل نضال مجتمعنا فى مرحلة التحول الاشتراكي قدمه المناضل عبد الناصر الى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية ليكون اساسا لتوحيد نضال كافة القوى الثورية فى مرحلة الانتقال الى الاشتراكية .

ان ميثاق العمل الوطنى باعتباره سلاحا للنضال فى مرحلة الانتقال الى الاشتراكية قد عنى بأن يتعرض الى كافة القضايا الاساسية لنضال شعبنا المصرى باعتباره جزءا من امتنا العربية وباعتبارها جزءا من العالم المتخلف اقتصاديا ، والذى ينشد النمو وتحقيق توسيع قاعد الثروة الوطنية .

ولكن الميثاق باعتباره اساسا لتوحيد كافة القوى الثورية فى مجتمعنا قد تجنب فى نفس الوقت حسم عدد من القضايا ذات الطبيعة النظرية العامة التى لا يودى حسمها بصورة أو بأخرى الى اية نتائج ايجابية فيما يختص بتوحيد القوى الثورية فى مجتمعنا والذى لا يودى حسمها بالتالى الى اغناء كفاح شعبنا ونضاله " .

وهذا كلام وافق الدكتور على نشره في مجلته وبعد وفاة عبد الناصر .
وفي مقال فيلسوف ومفكر كبير من اتجاه مخالف هو الدكتور عثمان أمين ، جاء : " لم يكن دور الثورة المصرية ثورة يوليو ١٩٥٢ وعبد الناصر مقصورا على مصر وانما تجاوزه الى مناصرة قضية الحرية فى كل مكان ومؤازرة حركات التحرر الوطنى فى افريقيا وآسيا ودول العالم الثالث وهذه حقيقة لا تحتاج الى بيان فجميع المؤتمرات التى اشتركت مصر فيها والمساعى التى بذلتها فى المنظمات السياسية الدولية والاقليمية خير شاهد على الدور القيادى الذى اضطلعت به فى هذه الحقبة القصيرة من نضالها .
" كانت امانى الرئيس الراحل ان تستعيد مصر مكانتها لتلحق ركب الحضارة بل لتتقدم هذا الركب كما كان شأنها فى ماضيها المجيد .

وواجب الاحرار فى هذه البلاد ان يواصلوا السير فى هذا الطريق الثورى فى بصيرة ومضاء ، حريصين كل الحرص على ان يكون منهج الثورة عندهم كما كان عند زعيمهم ، ان يفكروا كرجال عمل وان يعملوا كرجال فكر " .

ومجلات الفكر الرفيع عادة ، والاعداد الخاصة منها بالذات لاتصدر صدفة وانما هى تعبير عن موقف المجلة ككل ازاء حدث كبير فاصل .. هى مساهمة المجلة فى تقييم الحدث أو توجيه المستقبل والعدد الخاص فى مناسبة دقيقة لا بد أن يكون بحثا وتعبيرا أميناً عن آراء محددة ، ويحمل مسئوليته أولا وأخيرا رئيس التحرير .

وعلى كل فقد تقدم رئيس التحرير كل الكتاب والمفكرين وأراد أن يكون اكثر شمولا واحاطة وان يقدم تقييما كاملا ليكون دليل عمل للثورة بعد " الفاجعة " .

" لقد اراد اعداؤنا ان يستغلوا احزان أمتنا على رحيل زعيمنا فحاولوا ان يتحكموا فى تشكيل المستقبل بأن يوحوا الينا بفكرة الفراغ والايحاء بفكرة الفراغ يعنى أننا لن نستطيع ان ندير أمورنا أو نوجه أنفسنا بعد ان غاب ذلك الذى كان يدير لنا كل شىء ويوجه كل شىء هكذا اراد الاعداء ان يوهمونا وفى ظنهم ان تصديق هذا الزعم لا بد ان يوقع الناس فى الاضطراب والخلط فى كل ما يفعلون .
كان التدبير المقصود من نشر فكرة الفراغ نفسيا قبل كل شىء وذلك لان الفراغ بطبيعته مخيف انه هوة تهدد بابتلاع من يقترب منها وظلام يكتنفه من كل جانب وهو عجز عن الاهتداء الى الطريق وتخطب فى الاتجاه وفقدان للغاية من المسار وفضلا عن ذلك فان هذا الفراغ الذى يزعمون وجوده ليس فراغا دائما كان هناك على الدوام وانما هو فراغ مفاجىء طارىء وأصبحنا فجأة فى احلك الظروف واصعب المواقف انه فى حقيقة الامر تفريغ امتص الهواء الذى كنا نستنشقه وتركنا ونحن نفتقر الى اسباب الحياة .

من الفكرة التى يريد اعداؤنا ان يشيعوها بيننا ينبغى أن تكون نقطة انطلاقنا فهل نحن حقا فى فراغ .. وهل المشكلة الحقيقية التى يعانينا شعنا بعد غياب القائد هى ان كل شىء يحيط بنا ظلام وان الطريق قد انقطع فجأة أو انتهى الى هوة سحيقة توشك على التهام كل من يحاول مواصلة السير فيه .

" ان الفكر الواعى والتحليل الامين للموقف كفيل بأن يؤدى بنا الى الوصول الى نتيجة هى عكس النتيجة السابقة على خط مستقيم فاذا نظرنا الى الحاضر والمستقبل بعين فاحصة تبين لنا ان أول ما يتسما به بالقياس الى الماضى هو الامتلاء لا الفراغ .. وحسبنا ان نعقد مقارنة بسيطة بين اتجاهات عقولنا قبل عام ١٩٥٢ وبين اتجاهاتها الراهنة لنذكر مدى الامتلاء الذى أصبحت حياتنا تنسم به .

" ان الوصف الصحيح لموقفنا الفكرى بعد غياب القائد هو الامتلاء لا الفراغ ومن المؤكد ان للامتلاء مشكلاته ولكنها أيا كان تعقيداتها ليست مشكلات ولدها الهزال والعقم كما يتصور أصحاب نظرية الفراغ وانما هى مشكلات تولدت عن الخصوبة والثراء والتنوع الفكر الذى لا بد ان يتميز به العصر الذى نجد أنفسنا الان على ابوابه " .

وقام الدكتور الان ليتصل تماما من أى مسئولية عن نظرية الامتلاء ووصفها بأنها " مقال كان لا بد منه وفى اللحظة التى كتب فيها لا بد ان تكون لهجته مخففة لاخوفا من شىء بل احتراما لجلال الموت " .
والاستاذ الصارم الضمير قد يخدم جلال الموت بمرثية أو قصيدة ولكن ليس يبحث ينتهى الى نظرية يقول انها تقوم على " الفكر الواعى والتحليل الامين والوقائع الموضوعية " .

ويستتكف الدكتور ان يذكره احد بالمقال قائلا " لا يصلح ان يحاسب أحد على مايقوله فى كلمة تأبين . الا يتبع الجميع فى مثل هذه الظروف قاعدة اذكروا محاسن موتاكم " ! بل ويسأل " هل من الامانة العلمية بل والاخلاقية " أن تختار هذه المناسبة بالذات .. وهل يمكن ان يكتب تاريخ اى تجربة فى الحكم أو يحكم على زعيم من خلال كلمات الرثاء التى تقال بعد الوفاة مباشرة".

ويثور الدكتور لان مقالا بغير امضاء فى رثاء عبد الناصر قد نسب اليه خطأ ويتخذ ذلك مثلا صارخا لما يلحق به من اذى وان الذين يكتبون ضده لا يستطيعون تمييز " أسلوبه التقريرى " من أسلوب المقال " الشعارى " ويهدد الكاتب الذى وقع فى اللبس .

" ما رأى الاستاذ أبو سيف يوسف فى أن كل من قرأ لى شيئا يعرف أن أسلوبى التقريرى المباشر لا يتسم للأسف بشيء من شاعرية أسلوب الدكتور مكاوى .. وأنت تعلم يا أبا سيف أننى كنت أستطيع أن أصنع من هذه السقطة فضيحة .. واننى كنت أستطيع ان أكتب فى السخرية من استنتاجك وما يتبعه من نتائج صفحتان على الأقل . ولكننى سأكتفى بتقرير الحقيقة واسكت مراعاة منى لأداب المناقشة وتمسكا بفضيلة العفو عند المقدرة " .

وفضائل الدكتور متدافعة أكثر من أن تعد أو تحمى وليس بينها التواضع أو الموضوعية ! ويعثر الدكتور فى النهاية على الحجة التى يفحم بها خصومه ويشهرها ضد الماركسيين خاصة " الا تذكروا كلمات الرثاء الرائعة التى قالها عن ستالين فى عام ١٩٥٣ نفس أولئك الذين أدانوه عام ١٩٥٦ " . وقد شبه عبد الناصر وهوجم بأنه هتلر وكان أول من قال بهذا " جى موليه " ثم " ايدن " خلال ازمة السويس وقد دعا الشعب المصرى الى ان يثور ليتحرر من " الفاشية " الجديدة وأعلن بأنه " لامهاندنة مع الفاشية المصرية وان مهاندنة هتلر كانت سببا فى الحرب العالمية الثانية . وكانت المقارنة مفلسة مفتعلة !

وقد كان أول من عقد المقارنة بين عبد الناصر وستالين هو دكتور من غلاة واقطاب اليمين " وحيد رأفت " وبنفس النتائج التى انتهى اليها الدكتور " اليسارى فؤاد زكريا .. " وقضية ستالين مختلفة فى الشكل والجوهر وهى تاريخ وتراث لا يتصل من قريب أو بعيد بما حدث فى مصر .. والمفكر العالم لا يلقى بالمقولات والقضايا بغير ان يشفعها بالحجج وبأوجه المقارنة ثم نتائجها . وعلى كل اذا كان رفاق ستالين قد اخطأوا فى سنة ١٩٥٣ أو سنة ١٩٥٦ فليس هذا مبررا لى يكرر الدكتور الخطأ ولم يصبح هذا التصرف قانونا سياسيا يطبق دائما .

وكلمات الرثاء التى قالها رفاق ستالين حينما مات كانت كلمات رثاء .. لم تكن نظريات جديدة ابتكروها بمناسبة موته .. وحينما ارادوا ان ينقدوا ستالين وأخطاءه لم يقفوا ليشهروا به امام العالم .. ولكن فى جلسة سرية من مؤتمر الحزب الشيوعى السوفييتى وفيما بين الشيوعيين وبعضهم ومن أقطاب الاحزاب الشيوعية . كان نفدا فى اطار الايمان والثقة بالتجربة والثورة وبأن اخطاء ستالين كانت اخطاء سوف تتجاوزها التجربة وبقوتها الذاتية وقدرتها الخلاقة ..

لم يقف أحد ليلعن الثلاثين عاما من حكم ستالين وانها لم تحقق شيئا وانها قضت على روسيا وخربت روح الانسان الروسى .. وانه كان على كل الشيوعيين الصالحين أن لا يشاركوا فيها بل ان يقاوموها .. ويرفعوا راية الحرب عليها ! مثلما فعل الدكتور .. هنا .

وبعد بعض الوقت وحينما أدى الشطط فى نقد ستالين الى انحرافات من نوع آخر ، أعيد التقييم أكثر موضوعية واعترف بانه مهما كانت الاخطاء نحو الشرعية الاشتراكية والقيادة الجماعية الا ان ستالين قاد بناء الاشتراكية فى روسيا .. وكان له الفضل فى النجاح وان ستالين قاد الحرب الوطنية ضد المانيا .. معركة الحياة والموت لروسيا وكان له الفضل فى النصر . وتصدر تباعا الدراسات والكتب والافلام التى تضع الحقائق فى نصابها الصحيح .

ويستغرب الدكتور ببراءة روحه كيف يستنكر بعض الناس ان يغير موقفه ورأيه الآن .. ليس له الحق فى ذلك لانه " بعد خمس سنوات لا بد ان نفتح امام الذهن آفاقا جديدة وان نلقى على التجربة السابقة مزيدا من الضوء " ولايستغرب احد ان يغير الدكتور أو يطور مواقفه بعد خمس سنوات " مضيئة " .

ومشرفة.. كشف ضوءها كل شيء ولكن ما يستعربه الناس ان يتحول الاستاذ من النقيض الى النقيض وان لايقدم اى اكتشافات أو اسباب كانت خافية دفيئة لم يعرف بها احد قبل الان .

وما يستعربه الناس هو ان يتحول من الحماس الكامل .. الى الرفض المطلق .. بعد خمس سنوات. وما يستعربه الناس ويستثير ربيتهم ان تتفتح الأفاق الجديدة امام الدكتور فى الوقت الذى تشن فيه حملة محمومة ضد اشتراكية " عبد الناصر " وتريد استعادة اراضى الاصلاح الزراعى التى اغتصبت بغير حق وتريد استرجاع القطاع العام الذى أمم لاصحابه وتريد الغاء حق التعليم لابناء الفقراء . وقد يغضب الدكتور ان نتهمه بأنه لعبة فى يد اليمين أو اداة لهم ولكن .. أية خدمة لليمين أجل من أن يشكك الاشتراكيين كلا منهم فى الآخر ، وان يثير كل جماعة منهم ضد الاخرى ، وان يشكك فى كل ما أعتقدوا انهم حققوه ، وانجزوه .

لقد عزز كتاب اليمين المفلسين عن ان يفعلوا هذا وان يفقدوا الناس الثقة وليس هناك أثنى من أن يعثر اليمين على " شاهد ملك " يقف على منصة عالية ليقدم شهادة يلعن فيها كل ما حدث .. هذه شهادة لاتقدر بثمن ولا يتردد اليمين فى ان يحتمل بضعة كلمات وشتائم جوفاء توجه اليه أيضا . وقد كان هناك كثيرون من مؤيدى الثورة وتجربة عبد الناصر لهم تحفظات كثيرة وجوهريه وكان هناك كثير من خصوم عبد الناصر " الوطنيين " لهم آراء وتفسيرات معارضة ولكن ازاء الحملات المشبوهة والتي تهدد كل شيء قرروا ان ينتظروا وأن يؤجلوا نقدهم وان ينضموا الآن للدفاع عن الاسس العامة المهتدة .

ويقول الدكتور وهذا هو محور مقالاته " ان همه الاول والاخير هو تنبيه اليسار الى الحقيقة. وليس هناك وقت انسب من الوقت الحالى لتنبيه اليسار الى الحقيقة قبل فوات الاوان " . وهو قد كان دائما.. ومن البداية الى النهاية يتمنى " ان يسير اليسار فى طريقه المستقل ويكتشف مدى تباعد التجربة (الناصرية) عن الاشتراكية بمعناها الصحيح " وقد خيب اليسار أمل الحكيم " ان الردود التى قرأتها تجعلنى أميل الى التشاؤم من قدرة اليسار على الخروج من جموده القديم " . واليسار الذى يعنيه هنا والذى نذر نفسه لتقويمه هو اليسار الماركسى . وهو يريد ان ينبهه الآن الى خطأ جسيم وقع فيه فى الستينيات.. والدكتور ليس غريبا على هذا اليسار الذى يرى ان هذا هو أنسب الاوقات لمحاسبته وتنبيهه.. وهو كان وثيق الصلة به وبمفكره وكتابه فى تلك الفترة .. وكان يستكتبهم فى مجلته.. بل ويحرص على ان يساهموا لاقصى مدى فى تحريرها ولايكاد يخلو عدد من مقالاتهم ودراساتهم .. ومعظمها حول التجربة واصالتها وقدرتها على الانتقال إلى الاشتراكية. وقد كان أنسب الاوقات لتنبيههم هو قبل ان يتورطوا فى الخطأ القاتل خاصة وهو كان يعرف منذ البداية عيوب التجربة حينما كان اليمين يحرق لها البخور واليسار بالطبع! ولاندرى كيف سمح له ضميره ان يسكت سنين طويلة على خطيئة اليسار الكبرى بل وان يشجعهم على التماذى فيها.

السقطة

كانت السقطة وأولى الكبائر فى نظر الدكتور هى التى تفضل مشكورا باهدائها لى خاصة " تعليقا على الرواية التى نقلها محمد عودة عن رغبة عبد الناصر فى بناء حزب ثورى يضم الماركسيين المصريين بعد حل الحزب الشيوعى المصرى ، أقول بعد القرارات الاشتراكية بسنتين كاملتين وقع انقلاب على صالح السعدى فى العراق وذبح من اليساريين حتى المعتدلين منهم عشرات الآلاف فى ليلة واحدة .. وفى هذه الليلة كان الاعلام المصرى وعلى رأسه جريدة الاهرام بكل ما كان يربطها من علاقات خاصة بقمة السلطة أشبه بغرفة عمليات تتابع تطورات عملية ذبح اليسار ساعة بساعة وتصفق لها مهللة فهل يمكن ان يصدر تصرف كهذا عن جهاز أقرب من اليسار ولو الى ربع الطريق وهل يظل من الممكن بعد ذلك ان يفرج عن اليساريين كنتيجة طبيعية لتقارب التجربة الناصرية معهم " .

ويدخل الدكتور هنا بطرف حديد في القضية وهو البعث ، لقد كان همه نفي الاشتراكية واليسارية عن الناصريين واثبات استحالة التحالف أو التعايش بينهم وبين الماركسيين ولكنه تعزيزا للدالة جاء بطرف ثالث ودليل " دامغ.. مشفوع بدم عشرة آلاف شيوعى .

والناصريون والبعثيون والشيوعيون قوى اساسية للثورة العربية بل هم القوى الاساسية وبنفس الترتيب ويعتمد نجاح الثورة واستمرارها على قدرتهم على التحالف والتعايش بل والتفاعل وعلى امكانهم ابتداء صيغ عربية وخلاقة تخصب الفكر والتطبيق .. وقد نشب الخلاف فيما بينهم في مراحل وفترات كثيرة ولأوقات طويلة ووصل الى اقصاه في العراق خاصة ودفع جميع العرب والثوريين الثمن باهظا وكان طبيعيا ان يصلوا في النهاية الى النتيجة الوحيدة وهي ان الاهداف المشتركة تحتم طرق عمل وكفاح مشتركة وانه ليس لهم الا ان يكافحوا معا أو ان يهلكوا منفردين واحدا بعد الآخر.

وعلى هذا الاساس قامت في العراق- حيث نشبت المذبحة التي يتشفى بها الدكتور- جبهة وطنية من البعثيين والشيوعيين والقوميين والاكراد هي التي تحكم والتي يعتمد عليها في الحياة السياسية هناك . وقامت قبلها في سوريا جبهة وطنية من البعثيين والشيوعيين والناصريين وكل القوى الوجودية وكانت دعامة الاستقرار السياسي في سوريا حتى الان .

وفي مصر تتأكد القوى الناصرية والماركسية وكل القوى ص الوطنية التقدمية يوما بعد يوم ان حماية الثورة وضمنا الاشتراكية مرهون بقدرتهم على العمل معا في الاطار الملائم والذي يمكن ان يسعهم جميعا وليس لهم طريق آخر .

ولاثير قوى الثورة المضادة شيء مثل وحدة قوى اليسار وهي قد استمدت بقاءها أولا من صراعات اليسار ولا بد ان تستमित بكل الوسائل لكي تنبش دائما التاريخ، ولتثير كل الشكوك وتوقظ كل أسباب الخلاف. هكذا يساهم الدكتور.. ودكاترة كثيرون مثله بدور هام .

ويتشدد الدكتور كثيرا " بالحقائق التاريخية " ويستمد منها كل براهينه ولهذا نقدمها اليه. حينما حدث الانقلاب في العراق سنة ١٩٦٣ كانت كل الصلات والعلاقات مقطوعة تماما بين عبد الناصر والبعث .

وقد اشددت الازمة منذ استقالة وزارة البعث من حكومة الوحدة ثم حدثت قطيعة كاملة بعد الانفصال . وقد أيد البعث الانفصال وكتب البيان السياسي للحكومة الانفصالية أحد قادة البعث " صلاح البيطار " ووقعه باسم الحزب ومع قوى اليمين واليسار السورية الذي شنت الحملة على الجمهورية العربية المتحدة قام البعث بحملة تميزت بصراوتها وفاقته كل الحملات .

وتطرف أحد قادة البعث ونائب سابق لرئيس الجمهورية العربية المتحدة " أكرم الحوراني " وأكد أن عبد الناصر منذ البداية رجل اسرائيل والصهيونية وأنه جاء لينفذ مخططاتها .. وكان أول وآخر من قال بهذا وجرؤ عليه ودفع كل حياته السياسية ثمنا !

وكان البعث قد أنتهى في ذلك الحين الى ان خصمه الاساسى وعدوه في الوطن العربى هو عبد الناصر وأنه استولى على شعارات البعث وجماهيره وتخلص منهم بعد ذلك وكان الحزب يعمل للعكس ، أن يستولى على الجماهير الناصرية وعلى القيادة .. ولهذا انصب كل الهجوم لابطال سحر عبد الناصر على الجماهير.

وكان هذا هو السائد حتى الانقلاب، وحينما قام البعث بالانقلاب في العراق ثم في سوريا كان يريد ان يقيم سلطة في مواجهة عبد الناصر وثأرا منه وبعيدة تماما عنه. ولم يكن ممكنا لمصر في ذلك الحين ان يكون لها دخل باحداث العراق لا ان تديرها وتوجهها.

وحينما وقع الانقلاب كان العراق منقسما بين معسكرين يتربص كل منهما بالآخر، عبد الكريم قاسم والشيوعيون في معسكر والقوميون ويتصدرهم البعث في المعسكر الاخر .

وكان الحقد وبحر من الدم يفيض بين الطرفين . بالنسبة للقوميين وقف قاسم والشيوعيون ضد الوحدة والقومية العربية وهي محور حياة العراق وتاريخه وكان لا بد ان تتحقق بعد الثورة ١٩٥٨ مباشرة وبالنسبة لهم كان الشيوعيون مسئولين عن الاغتيالات والمذابح الكبيرة في كركوك والموصل والتي ألقى قاسم مسئوليتها علنا على الشيوعيين وقرر محاكمتهم . وبالنسبة لقاسم والشيوعيين كان القوميون

والوحدويون يريدون القضاء على سيادة العراق وعلى الحزب الشيوعي بتأييد من دمشق والقاهرة ويريدون وضع العراق تحت حكم عبد الناصر!

وكانت العلاقة بين قاسم والشيوعيين متعثرة ومتوترة ولكنها كانت ضرورة للاثنين .. كان حكم قاسم معزولا وكان الشيوعيون هم سنده الشعبي الوحيد .. وبالنسبة للشيوعيين كانوا يرون البديل الوحيد هو البعث والقوميون .. كان قاسم هو " السوء الافضل "!

وحيثما حدث الانقلاب مفاجئا للجميع فزع الشيوعيون ونزلوا على عجل بقوتهم واسلحتهم الى الشارع دفاعا عن قاسم والحكم القائم .. واستماتوا في الدفاع .. كانت حربا أهلية بين طرفين حول السلطة .. لم تكن مذبحه انقض فيها فريق على الآخر غير المسلح .. ولم يسقط في القتال عشرات الالاف ولا يعرف احد العدد بالضبط وهو على حسب تقدير البعث بضعة مئات وحسب تقدير الطرف الآخر لا يزيد عن ثلاثة آلاف وهو بالطبع لا يخفف من المأساة ولكن يكشف دقة الدكتور!

وبعد فشل الشيوعيين ونهاية قاسم بدأت سلسلة من الاغتيالات استمرت بعض الوقت .. وكانت تصفية لحسابات المعركة ولحسابات كركوك والموصل ، وقد تكون أليمة ومؤسفة يستنكرها الجميع ولكن لا يمكن ان يلقى احد مسؤوليتها على مصر أو على جريدة الاهرام .

ويستمد الدكتور دليله على مسئولية مصر من ان جريدة الاهرام ذات الصلة الوثيقة بقمة السلطة تحولت الى غرفة عمليات ليلة الانقلاب .. ويعنى انها تحولت الى غرفة القيادة التي أدارت المذبحة ولكن لم يكن غريبا ان تتحول الأهرام الى غرفة عمليات " صحفية " . كان حدثا هز العالم العربى ولا بد ان تعلن فيه الطوارئ فى أى جريدة كبرى .. ولكن لم يكن الاهرام ولا قمة السلطة فى مصر يصدر أوامر وتعليمات " الذبح " أو يستطيع أن يفعل !

وبعد الانقلاب فى العراق حدث الانقلاب ق سوريا وقد اشترك فيه ضباط كثيرون وحدويون ناصريون كانوا لازالوا فى الجيش السورى منذ الوحدة ومن المؤمنين بقيادة عبد الناصر ولكن كان العمل الاول للبعث بعد نجاح الانقلاب هو تصفية هؤلاء الضباط تصفية دموية أو سياسية واقصائهم من الجيش ومن كل الحياة السياسية .

وقد جاء البعث العراقى والسورى بعد تولى السلطة الى مصر لبحث وحدة ثلاثية مع مصر وكان هذا هو الظاهر وكان سببه ان كانت الجماهير العربية خاصة فى العراق وسوريا تتطلع الى مصر والى عبد الناصر ولا تتطلع الى احد اخر .. وكانت الجماهير لا تثق فى حكم أو نظام لا تباركه مصر ولا يقبله عبد الناصر .. وقد جاء البعث فى العراق بعهد السلام عارف واجهة سياسية لهذا الهدف . وكانت الجماهير فى سوريا فى لهفة على عودة الوحدة وتتصور عودتها مباشرة بعد سقوط الانفصال وتحت هذا الضغط جاء البعث الى القاهرة لبحث الوحدة مع عبد الناصر ودارت المباحثات الثلاثية المشهورة .. وقد نشرت محاضر هذه المباحثات بعدئذ كاملة وقدمت وثيقة من أهم وثائق الثورة وقد رأى عبد الناصر ان يكشف المناورة وان يضع كل أفكاره وسياسته ومواقفه صريحة فى مواجهتهم وان يحدد " الناصرية " فى مواجهة البعث وامام كل العرب وقد جعل هذا من الوثيقة عملا فذا افحم الطرف الآخر .. ولو كلف الدكتور نفسه عناء قراءتها لتورع كثيرا عن معظم اقتراءاته .

وقد فشلت مباحثات الوحدة .. كما كان مقدر لها ان تفشل وعاد البعث الى بغداد ودمشق أكثر حقا وعداء لعبد الناصر . والقى كل المسئولية عليه وبدأت حملة اشد ضراوة .

وكانت مصر فى ذلك الحين مستغرقة فى عمل مجيد وهو حرب اليمن وكانت تبذل الدم والجهد غزيرا فى شبه الجزيرة ولكن البعث " محرر الامة العربية وموحدها " لم يجد بأسا فى ان يشدد الهجوم على عبد الناصر وعلى الحرب نفسها !

وإدى هذا الى الانقلاب على البعث فى العراق بقيادة عبد السلام عارف وإدى بعد ذلك ببعض الوقت الى ثورة على الثورة فى داخل البعث بسوريا اطاحت بالقيادة القديمة المتخلفة ولاقامة بعث جديد لا يعيش بالعداء لمصر وعبد الناصر!

ولا بد لهذا ان نعبد الهدية للدكتور وان نطلب منه شرحا أكثر تفصيلاً كيف سخر عبد الناصر البعث فى العراق لذبح عشرة آلاف شيوعى .. وليقدم لنا دراسة " دسمة " من دراساته !
و أخيرا .. فان الانقلاب فى العراق قد تم فى سنة ١٩٦٣ .

والافراج عن الشيوعيين المصريين حدث سنة ١٩٦٤ وحل الحزب الشيوعي المصري تم سنة ١٩٦٥ ولا ندري اين الغرابة في ان يقوم التفاهم والتحالف حينئذ .. وهو لم يقم قبل " المذبحة " أو خلالها ليخرج الدكتور بنتائج.

وأى عجب في أن يبدأ عبد الناصر الطريق الذى انتهى اليه البعثيون و الشيوعيون و القوميون .. وخاصة اطراف المذبحة " الرهيبة " في العراق التي يعتمد عليها الدكتور في أهم ادلته ! ان الخلاف والصدام بين القوى الوطنية والثورية قد يكون مؤسفا ومؤلما ولكنه واقع . وانتهاء هذا الخلاف والصدام نهايات ايجابية بالاتفاق والعمل المشترك في كل الصيغ والصور.. ليس امرا مستغربا والعلاقات بين القوى الوطنية والثورة ليست علاقات ذاتية أو شخصية ، والصدامات بينها ليست ثارا فرديا.. ولكنها قضايا موضوعية تحكمها قوى وقوانين هي التي تحكم المجتمع وحركة التاريخ .

وحيثما تكون الاهداف مشتركة فلا بد ان يكتشف كل الاطراف حتمية التحالف والتكامل .

وقد يكون من حق كل قوة أو حزب ان يكون له استقلاله الذاتى أو تميزه الخاص أو طريقه واهدافه الخاصة وقد يكون له حق النقد والمعارضة ولكن لا تستطيع أى قوة وطنية أو ثورية ان تعمل وحدها خاصة في واقعنا العربى أو ان تحتكر " الثورة " لنفسها أو ان تضع نفسها فوق كل القوى الاخرى أو ضد كل القوى الاخرى .

وقد كان من أهم الدروس التي علمها لينين للماركسيين والتي جعلها محورا لاثبات قدرتهم السياسية والثورية هي العمل مع القوى والاحزاب الاخرى .. واقامة الجبهات وعقد المحالقات القصيرة والطويلة المدى والاتفاق على خطوط أو برامج مشتركة وقال لينين ان التاريخ لا يسير في طريق مستقيم بل حافل بالانحناءات والمنعطفات ولا بد للثوريين ان يتعلموا السير فيها . ونصح لينين ماركسي الشرق الذين يكافحون في واقع وظروف مختلفة ومعقدة ان يلائموا النظرية لواقع بلادهم ومجتمعهم !

ولكن الدكتور الاكثر حرصا على الماركسية من لينين يريد ان يثبت للماركسيين ان تحالفهم مع الناصريين كان خيانة للثورة وللشراكية وان عليهم ان يعلنوا ندمهم وان لا يكرروا الخطيئة . ويشعر الدكتور بالتشاؤم لان الماركسيين لم يستجيبوا لدعوته ولاشئء يبعث تفاؤله مثل أن ينقلب الماركسيون على الناصريين وأن يشهروا بهم وان يقوم الناصريون بالرد وان يمستغرق الطرفان في حرب عنيفة .. هي أشد مايسعد به اليمين تماما كما يسعد به الدكتور.

ويتسفى الدكتور بالشيوعيين قائلا " أسف أشد الاسف لاننى لا استطيع ان اشترى لكم الراحة النفسية على حساب الحقيقة التاريخية " .

ولكنه يفعل ذلك بأشد اليسر ويلا أى حرج اذا ماتعلق الأمر براحته النفسية ، وشفاء أحقادهم وضغائنه الصغيرة.

السقطة الثانية

والكبييرة الثانية والأشد خطبا والتي اصابت الدكتور بالدهشة والالام كانت الرأى في نكسة ٥ يونيو. " احسست بالدهشة والالام حين قرأت منشور الدعاية الطويل الذى كتبه الاستاذ محمد عودة عن السياسة الخارجية في عهد التجربة الناصرية والذى جعل فيه السياسة الخارجية هي المحك الوحيد لنقد الثورة.. فقال بالحرف الواحد : يقاس نقد الثورة اذا كان علميا وموضوعيا ونزيها بانجاز واحد هو ما حققته للقضية المصرية ، متجاهلا بذلك كل المقاييس الاخرى المتعلقة بحياة الانسان وأمنه وطمأنينته وحياته ومأكله وصحته وتعليمه بل متجاهلا التداخل الوثيق بين هذه العوامل الداخلية وبين أى تحرك يمكن تحقيقه بالنسبة الى القضية المصرية.. والامر المؤسف هو ان الاستاذ عودة لم يعمل أى حساب لذلك الانهيار الذى طرأ على معياره الوحيد وهو القضية المصرية بحيث اعادها نصف قرن الى الوراء بعد ٥ يونيو ووصله ذلك التجاهل الى ذروته حين قال اذا كانت قد حدثت أخطاء في السياسة الخارجية المصرية أو الدولية فانها لم تقض علينا ولم تكسرنا ولكنها عركتنا " .

وحمل الدكتور النفيير ليعلن " أرايتم الى أى حد يزيغ اليسار المصرى تاريخنا بعد ٥ يونيو " .

وقد احسست بالدهشة بدورى ولكن مع الرثاء والاسى .. ولا احد يعرف القضية المصرية الآن بانها القضية الوطنية وتحرير أرض الوطن فقط ، سوى الدكتور نفسه ، وهذا تعريف تقليدى كان سائدا حتى سنى الثلاثينات والاربعينيات من هذا العصر وذلك حينما كانت البورجوازية الوطنية هى التى تقود وحدها النضال الوطني وكان الباشوات والبكوات الوطنيون هم القادة وحدهم وكان المحتوى الاجتماعى للوطنية لازال محدودا وكان الشعار السائد هو تحرير الاقتصاد من يد الاجانب أى نقل الثروة من الرأسماليين الاجانب الى الرأسماليين الوطنيين . ولكن لم يعد هذا التعريف قائما أو صحيحا ولا يستعمله احد و " اليساريون " خاصة !

وقد أعلنت ثورة يوليو منذ البداية ان القضية المصرية قضية مزدوجة ذات وجهين يرتبطان ارتباطا عضويا وهى قضية وطنية واجتماعية معا ، وكان هذا أهم خصائصها وما منحها قوة الدفع التى صمدت وتطورت بها الى أبعد مدى وفى المبادئ الستة وهى أول برنامج لها كان نصف البرنامج حول المضمون الاجتماعى للكفاح الوطنى وتبدأ بتصفية الاقطاع والغاء الاحتكار وسيطرة رأس المال ثم اقامة عدالة اجتماعية ولم تقف الثورة عند هذا الحد .. وسارت حتى الاشتراكية العلمية فى الميثاق الوطنى.. وهى قد اكدت فى كل خطوة ان تحرير الارض انما يعنى تحرير الشعب وان تحرير الشعب مقدمة ونهاية لتحرير الارض .

ولم يكن ممكنا أو معقولا الدفاع عن ثورة ضد هجمة الدكتور الكاسحة باغفال أهم اركان الثورة و التجربة الناصرية كما يسميها .

ويتحدث الدكتور كثيرا عن الامانة العلمية ولكنه لا يضرب مثلا.

وقد كتبت صراحة وضمنا عن القضية المصرية فى هذا الاطار ولايمكن ان يفهم أحد ان القضية المصرية كما طرحتها فى هذا الحوار مع الدكتور الذى يهاجم أساسا اشتراكية الثورة يمكن ان تكون القضية الوطنية وحدها .. وتحرير الوطن من الاحتلال فقط وبغير تحرير جماهير الشعب من الاستغلال.

قلت فى نفس البحث الذى يستشهد الدكتور بقراته.. والمنشور هنا .

" ان نقد فيلسوف ومفكر للثورة وتقييمها يجب أن يكون نقدا علميا قائما على منهج وموقف ورؤية واضحة ولايد أن يبدأ بنقد فكر الثورة ثم تطبيقاتها وسياستها وبهذا يستطيع أن يكشف عن طبيعتها فاشية كانت أم اشتراكية. وهل كانت متناسقة متكاملة نظريا وعمليا أم كانت منفصلة زائفة " .

وقلت أيضا فى نفس الفصل الذى انتزع منه الدكتور فقرته " كان للثورة خطوطها السياسية الثابتة وتطبيقاتها وهى اجلاء الاستعمار القديم وصد الاستعمار الجديد. وفى الداخل كان للثورة هدف واحد هو تصفية المجتمع القديم المستغل واقامة مجتمع يحقق المعدل والرخاء " .

بل وكانت أول فقرة بدأ بها هذا الفصل هى " هل كانت الناصرية فاشية سحقته مصر والمصريين .. أم كانت ثورة وطنية اشتراكية حررت ملايين مصر المسحوقة " ...

ولم يكن هذا تحديدا للقضية المصرية وتعريفها بأنها القضية الوطنية فقط باستبعاد القضية الاجتماعية. وينتزع الدكتور فقرات يضعها فى اطار مختلف لاثبات مايريد وليس هذا أرفع صور الأمانة العلمية ! ويستفزع الدكتور تماما ويستكف أن نقول أن هزيمة يونيو قد عرقتنا ولم تكسرنا وأن يصل بنا الزيف وتزييف التاريخ الى هذا المدى !

وهذا القول شائع معروف ويصح فى حياة الافراد كما يصح فى حياة الشعوب. وهو يقول ان المصائب التى لا تكسرنا تصنعنا.. وقد انطبق ولم يرفضه ويكذبه أحد قبل الدكتور.

وإذا كانت نكسة ٥ يونيو لم تعرنا ومن الافتراء على التاريخ وتزييفه أن نقول هذا .. فلا بد وانها قضت علينا ولم تبق ولم تذر!

و ٥ يونيو كارثة وأكبر الكوارث وأشدّها ولكنها لم تكن القاضية.. وهى ليست الوحيدة الفريدة فى نوعها والتى لم تحدث الا فى مصر وبسبب النظام الذى كان قائما.

وحياة الشعوب وتاريخها وخاصة الشعوب العريقة هو تاريخ الانتكاسات بقدر ماهو الانتصارات التى حدثت. ويحفل التاريخ القديم والحديث بالأمثلة التى لا تنتهى . وفى الحرب العالمية الثانية وصلت القوات الألمانية الى مشارف موسكو وعلى بعد ٢٨ ميلاً بالضبط منها.

ومنذ قام النظام النازي وهو يؤكد أن هدفه الأول والأخير هو شن حرب صليبية على " البلشفية " ولاستئصالها " نهائيا " وفصل هتلر في انجيله السياسي كتاب " كفاحي " الخطة نظريا وعمليا. وكان الاجهاز على البلشفية في نفس الوقت خطة (التوسع شرقا) الى آسيا عن طريق أوكرانيا الروسية وهي استراتيجية الامبريالية الألمانية منذ بدايتها .

وكان قادة الاتحاد السوفييتي يعرفون هذا تمام المعرفة وكانت كل خططهم وسياساتهم في البناء والدفاع تقوم على اعداد الاتحاد السوفييتي للمواجهة المحتمومة مع " النازية " .

وقبل الهجوم ببضعة أشهر أبلغ ايدن وزير الخارجية البريطاني ستالين بأن المعلومات المتوافرة لدى المخابرات البريطانية تؤكد أن الهجوم الألماني سيبدأ في صيف سنة ١٩٤١ على روسيا .

وحصلت المخابرات السوفييتية على وثائق ومعلومات تثبت هذا الرأي وتؤكد .. قدمتها الى القيادة و قبل الهجوم بيوم واحد هرب جندي الماني " شيوعي " من وحدته وعبر الى الحدود السوفييتية وكشف لهم السر أن أوامر الزحف قد صدرت وان الهجوم سيقع في الغد .

ومع هذا وقعت الكارثة واجتاحت الجيوش النازية روسيا البيضاء وأوكرانيا أهم جمهوريات الاتحاد السوفييتي واستطاع الطيران الألماني أن يقضى على معظم الطيران السوفييتي على الارض ووصلت القوات النازية منتصرة حتى ضواحي موسكو. وأعلن معلقون عسكريون كثيرون بل وأقطاب سياسيون أن المعركة لن تستغرق أكثر من أسبوعين وأن روسيا " البلشفية " قد انهارت وانتهت .

وبعد الصدمة الأولى والقاصمة نهضت روسيا ثم ردت ثم قلبت الميزان وانتهت قواتها في قلب برلين! وحدث الشيء نفسه للولايات المتحدة الأمريكية .

كان الصراع حول المحيط " الباسفيكي " .. ثم على آسيا ، محور الحرب بين الولايات المتحدة واليابان وكان كلاهما واثقا من حتميتها .

وقد بنت اليابان قوتها البحرية والعسكرية عامة على هذا الأساس وأقامت الولايات المتحدة كل استراتيجية المضادة على قوة بحرية وجوية تستطيع أن تقضي على اليابان .

وقبل الحرب استطاعت المخابرات الأمريكية أن تحصل على الشفرة السرية اليابانية كاملة وأن تعرف منها كل شيء عن خطط اليابان ومشاريعها وموعد الحرب وضرباتها الأولى . وكانت المخابرات السوفييتية بدورها قد حصلت عن طريق أبرع جواسيسها وجواسيس الحرب العالمية الثانية- سورج- على معلومات مماثلة وبنفس القدر من الأهمية وتبادلتها مع الحلفاء .

ولكن فوجئت الولايات المتحدة بضربة قاصمة ضد البحرية وفي أهم قواعدها في "بيرل هاربور" كانت أكبر كارثة من نوعها في التاريخ الأمريكي شلت قدرة الأسطول وأهم سلاح تعتمد عليه الولايات المتحدة في الحرب. ومنحت اليابان المبادأة والتفوق الاستراتيجي المطلق للمرحلة الأولى من الحرب .

ولكن انتهت الحرب بعدئذ نهاية مختلفة وكسبتها الولايات المتحدة ولم تنقطع الكوارث عن بريطانيا خلال الحرب. لم تكن بريطانيا مستعدة ومعبأة كما ينبغي. وتوالت الكوارث، أفضع الكوارث في التاريخ البريطاني وأشدها مهانة ومذلة. فرت القوات البريطانية في دنكرك ، وأسرت الجيوش البريطانية في طبرق وسقطت سنغافورة أكبر القواعد البحرية في آسيا . ولم يجد تشرشل مايقدمه للشعب البريطاني سوى العرق والدم والدموع طوال أربع سنوات مريرة من الحرب ثم انقلب الميزان وخرجت بريطانيا منتصرة !

وقد بنت فرنسا "خط ماجينو" أقوى حزام استراتيجي حول حدودها الشمالية وانتهت الى أنه حزام الأمان حول فرنسا والذي لا يخترق واعتمد دفاعها أساسا عليه .. ولكن خلال أيام معدودة من الحرب سقط خط ماجينو كله وتدفقت القوات الألمانية في هجوم كاسح حتى باريس واحتلت نصف فرنسا .. وكانت أعظم كوارث التاريخ الفرنسي واحتلت فرنسا ولم تسقط . خرج ديغول وقامت فرنسا الحرة وبدأت المقاومة واستمرت حتى انهزمت المانيا وتحررت فرنسا. وتولى ديغول السلطة وبدأ تاريخ آخر.

وفي الجانب الآخر أيضا حدث نفس الشيء . وقد هزمت المانيا في الحرب هزيمة صمم الحلفاء أن تكون نهاية تاريخها وأن تجرد من كل قدرة على أن تقوم ثانية دولة عظمى أو دولة محاربة وقسمت المانيا الى أربع مناطق احتلال بين الدول الحلفاء الأربع وتحولت برلين العاصمة الى مقر قيادة الاحتلال الرباعي. ولكن قامت بعدئذ دولة من ثلاث مناطق هي المانيا الغربية حققت بعد سنوات ما سمي

المعجزة الالمانية أغنى وأقوى دولة فى أوروبا وتحققت على الضفة الاخرى معجزة المانية فريدة وقامت فى منطقة الاحتلال السوفييتى دولة المانية اشتراكية.. وفى وطن كارل ماركس قامت فى المقاطعات الالمانية الزراعية والمتخلفة دولة اشتراكية صناعية فى مقدمة الدول الصناعية الرئيسية فى العالم !

وما حدث لليابان ، لم يحدث لاي شعب ولن يتكرر.. القيت عليها القنبلة الذرية فى هيروشيما ثم القيت قنبلة أخرى فى نجازاكي.. وقتل فى كل غارة منها ربع مليون يابانى.. وأرادت الولايات المتحدة محو اليابان تماما من خريطة آسيا والعالم .. ان تعود بضعة جزر ثانوية الاهمية فى المحيط الباسفيكى . ووجد اليابانيون الطريق للحياة ثانية من الأشلاء الذرية وولدت يابان جديدة ديموقراطية وتكنولوجية شقت

لها دورا ومكانا خاصا فى اقتصاد وصناعة العالم وأصبحت القوة العظمى الخامسة.. ومعجزة اقتصادية تكنولوجية فى حياة العصر وتبحث الآن عن دور سياسى ليس توسعيا واستعماريا وعسكريا فى حياة آسيا الثورية الجديدة وفى حياة العالم . ولم يختلف الامر عندنا.. ولماذا يختلف.

لم تمسقط مصر وينتهى تاريخها ودورها.. لم ينسحب الشعب المصرى ولم تنحسر مصر من على خريطة العالم . وقد صمد الشعب المصرى لكوارث لم تنقطع واستوعبها وتجاوزها خلال سبعة آلاف عام من التاريخ وقد تميز هذه المرة أنه خرج على الفور لمواجهة الكارثة.. وتخطاها يوم وقوعها.. وأبطلها فى أيام.. وكان حدثا فى تاريخ مصر وتاريخ العصر كله.

لم تنهار مصر ولم تعد خمسين سنة الى الوراء.. وخرجت مصر كلها ازاء الكارثة وأثبتت صلابتها واستمرار الثورة والحياة عارمة ولآخر مدى !

لم تستسلم مصر وتدخل قوات الاحتلال منتصرة ، وترفع علما أجنبيا على العاصمة وتعلن نهاية السيادة والكرامة الوطنية.. ولم ينته الحكم الوطنى الثورى . ولم يكسر أحد سيفه ويسلمه للغزاة معلنا يأسه وقيام سلطة أخرى تحكم مصر وتسود فيها.. ولم يقم العملاء وذيول الاجانب ليتولوا السلطة فى حماية الغزاة وليعلنوا عودة مصر مستعمرة مباشرة أو غير مباشرة تماما كما كانت منذ خمسين سنة .

لم يقف الشعب جائعا تائها ويندب حظه ويبيكى ضياع حريته وارادته ولكن خرج بكل فرد فيه.. مفاجئا العالم كله باستعراض قوة لم يحدث مثله.. وليثبت أن الهزيمة عسكرية وعارضة وليست انهيارا قوميا . كانت ٥ يونيو احدى الهزائم الكبرى . ولكنها ظلت خسارة معركة ولم تصبح ولم يكن ممكنا ان تكون نهاية تاريخ ووجود.

ولم تكن ٥ يونيو صدفة ولم تحدث فجأة أو مباغته.. كانت ذروة مواجهة مباشرة عنيفة ومريرة استمرت عشر سنوات بين الثورة " الناصرية " وبين الامبريالية الامر يكية .

وقد امتدت المواجهة الى كل العالم العربى فى المشرق والمغرب وشبه الجزيرة واحتدمت بدرجات متفاوتة العنف على كل الجبهات.. ولم تهدأ يوما أو تتوقف وحفلت بالعثرات والانتصارات ولكن حسابها النهائى كان لصالح الثورة واضحا .

وقد بدأت المواجهة باعلان " نظرية " ايزنهاور سنة ١٩٥٧ ومحورها " ملء الفراغ " الذى خلفه سقوط النفوذ الفرنسى والبريطانى فى المنطقة ولا بد أن تملأه الشيوعية الدولية. وبلغت المواجهة حدها الاقصى يوم اعلان عبد الناصر فى مايو سنة ١٩٦٧ أن الولايات المتحدة هى زعيمة الثورة المضادة فى العالم وان القضاء على الثورة المصرية هدف أساسى من أهدافها ولن تسكت حتى يتحقق ولم يكن قد بقى للولايات المتحدة سوى الهجوم العسكرى المباشر.. فقامت به اسرائيل يوم ٥ يونيو. وبدأت المواجهة فى المشرق العربى منذ ١٩٥٧ وأدت الى الوحدة مع سوريا والانتفاضة فى لبنان ثم الثورة فى العراق والى سقوط مشروع ايزنهاور وحلف بغداد معا.. ومهما كان ما حدث بعدئذ .. الا أنه لم تقم نظم أو دول معادية أو مضادة للثورة أو موالية للامبريالية فيها، وفى المغرب العربى انتصرت الثورة فى الجزائر وقامت دولة عربية وثورية جديدة .. وسقطت كل مشاريع الاستقلال فى اطار الغرب أو فى اطار المغرب الكبير.. المشروع الاستعمارى العتيق ولكن فى اطار الثورة القومية العربية.

وفى شبه الجزيرة.. وقع الحدث الكبير وقامت الجمهورية وتوطدت فى اليمن.. وامتدت جذوة الثورة الى امبراطورية البترول التى أحيطت بكل الحصانات و الضمانات الواقية .

وفى القضية التى كانت بؤرة الصراع.. فشلت مشاريع الاستيعاب والامتصاص وأكد الشعب الفلسطينى ذاتيته وشخصيته وقامت منظمة التحرير الفلسطينية وجيش التحرير الفلسطينى .

وفى مصر ذاتها.. أتمت بناء السد العالى وافتتح فى مظاهرة عربية كبرى وفى مظاهرة صداقة عربية سوفيتية رمزا لنهاية الحصار السياسى والاقتصادى والاستراتيجى الذى فرض عليها لحقب طويلة وأتمت مصر بنجاح خطة خمسية فى اطار التحول الاشتراكى وشرعت فى خطة جديدة لارساء قاعدة للصناعة الثقيلة لتكون أساس التحرر والتنمية العربية المستقلة والمتقدمة فى غير اطار الرأسمالية العالمية خلال عشر سنوات.. وقفت مصر حائطا سميكا دون أن يقوم العصر الأمريكى .. نفت ان يكون هناك فراغ يملأه الاجانب.. واستحقت لهذا غضب " الالهة " البيض .

وانتهت الولايات المتحدة الى آخر ما تستطيعه وقررت وقف مبيعات ومعونات القمح الامريكى لمصر لتجوع وتخضع وكان هذا القمح يفيض عن حاجة الولايات المتحدة وتمن به على الدول النامية أو تساوها على استقلالها وسخرت مصر وهزأت بالتهديد واشترت القمح من مصدر آخر.

وأعطت الولايات المتحدة الاشارة الخضراء للحرب وبدأت الحرب التى بدأ الاستعداد لها بين اسرائيل وبينها منذ نهاية حرب ١٩٥٦ ونفذت الخطة التى قال قائد الطيران الاسرائيلى بعدئذ أنهم ظلوا عشر سنوات يأكلونها ويشربونها ويحلمون بها ويفكرون فيها حتى قاموا بتنفيذها .

كانت الاستراتيجية الامريكى الاسرائيلية تقوم كما حددها ديان .. حل مشكلة الشرق الاوسط يبدأ بالقضاء على مصر والقضاء على مصر يبدأ بالقضاء على قوتها العسكرية . والقضاء على القوة العسكرية المصرية يبدأ بالقضاء على سلاح الطيران .. وتمت الطريقة التى بدت رائعة باهرة وحسنت كل شىء والى الابد.

وبعد الحرب مباشرة قال جونسون رئيس الجمهورية فى أمريكا وقال ديان وزير الحرب الاسرائيلى- تماما كما قال الدكتور- ان مصر قد انتهت وانهارت وأنها عادت خمسين عاما الى الوراء.. أى عادت مستعمرة خالصة للغرب يفعل بها ما يشاء!

وأعلن ديان أنه منتظر الى جوار التليفون حتى تدق مصر لتطلب الاستسلام وسوف يمنحها الرفق والرحمة!

كانت النتائج المؤكدة والمحتومة والتى لاشك فيها بالنسبة لحرب ٥ يونيو : لابد وأن تكون نهاية عبد الناصر وهى تعنى نهاية كل شىء . كان الخصم الاول واللدود وقد هزم هزيمة حياته فى ستة أيام وانتهت القوة العسكرية التى كان يقيم حكمه وسلطته عليها . وسوف ينتهى لاشك .. لم يبق له ما يعتمد عليه أو يبرر استمراره .

وترفض الامبريالية الامريكى القادة التاريخيين والجماهيريين ولا تدخر جهدا لتصفيتهم والقضاء عليهم. وتريد دائما سياسيين صغار تملى عليهم أو مغامرین عسكريين بلا عقول ينفذون الخطط والانقلابات . وكان عبد الناصر خصما من نوع خاص امتدت شعبيته وتغلغت عبر كل الحدود.. وفى أهم المناطق وكان القضاء عليه فى هزيمة كبرى هو أثنم الجوائز!

وكانت النتيجة الثانية.. هى انهيار مصر ونهايتها.. ان تعود دولة صغيرة لا تتجاوز حدودها وتستغرق فى مشاكلها.. وبعد حروب محمد على أصرت أوروبا ان تعود مصر "ولاية عثمانية" يحكمها ولاة تابعون للسلطان وأوربا.. وبعد الثورة العربية جاءت بريطانيا لتجعل مصر مستعمرة ومنطقة نفوذ بريطانية خالصة.

وكان الشرط الاول والاخير للولايات المتحدة منذ تفتح الثورة على العالم العربى والعالم الثالث أن تعود الى داخل حدودها، ولا تقود القومية العربية أو تتقدم الثورة الآسيوية الافريقية .

مصر هى مصدر الخطر وأساسه ولا بد من احتوائها وحصارها داخل حدودها وان لا تتخطاها وتكون قيادة لثورة عربية أو ركيزة لثورة افرو آسيوية .

وإذا ما انهارت هيبة مصر ومكانتها وإذا ما انطفت شعلتها فان كل شىء يخمد وينتهى .

والنتيجة الثالثة هي تصفيلة المشكلة الفلسطينية. لا بد ان استعراض القوة الاسرائيلية الصاعق قد خلع قلوب العرب جميعا.. وبعث اليأس التام فى نفوس الفلسطينيين .. وأدرك الجميع ان السيادة لاسرائيل . وهي سيادة مطلقة ونهائية ولا بد أن يتخلوا عن أو هامهم وان يقبلوا ما تعرض اسرائيل .

وإذا ما ذهب عبد الناصر وانهارت مصر وانتهت مشكلة المشاكل .. كما لا بد ان يحدث.. فان العصر الامريكى الاسرائيلى فى المنطقة سوف يبدأ.. ويدوم خمسين أو مائة عام أو أكثر.. تماما كما قدر جونسون وديان .

ولم يستمر الوهم أياما ولدهشة كل الاطراف وذ هولها كان ما حدث هو العكس تماما .
وحيما أعلن عبد الناصر مسئوليته الكاملة بما حدث وقراره ان ينتحى خرج الشعب كله.. وفى أكبر مظهرة قومية حدثت فى تاريخ مصر واستبقاه .. ان عبد الناصر هو ابن الشعب وبطله أولا والقوة الشعبية هي التى تحميه وتستبقيه وهي بالوعى والفطرة تدرك حدود الهزيمة.. ومغزاها والمسئول عنها وهي ترفضها وسوف تتجاوزها - وبقي عبد الناصر.. وبقائه تبدد الحلم الامريكى .

ولم تخرج الجماهير المصرية وحدها ولكن خرجت الجماهير العربية فى كل عاصمة ومدينة تطلب الى عبدالناصر البقاء تماما كما طلبت الجماهير المصرية.. انه يمثل ارادة كل العرب وتجسدها ولا بد ان يبقى رمزا لصمود الامة ولا استمرار الثورة .

وحيما ذهب عبد الناصر بعدالهزيمة بقليل الى الخوطوم خرج شعب السودان بأكملة ليستقبله وليغمروه بحرارة ذلك الاستقبال تأكيدا للثقة التى لم تهتز فى قدرته وفى قيادته.

ولم تنته مصر أو تنهار وعلى العكس تماما فى أقصر وقت ممكن أعادت مصر بناء كل ما أنكسر من قواتها المسلحة .. وبعد أسابيع قليلة من الهزيمة استؤنف فى رأس العش القتال الذى تصاعد الى حرب استنزاف .. ثم الى ٦ أكتوبر .

وخرجت الجماهير مرة أخرى تطلب التغيير الجذرى داخل الثورة.. وصدر بيان ٣٠ مارس وأعيد البناء السياسى.. واستمرت التنمية واقامت قاعدة الصناعة الثقيلة وهي قاعدة القوة الرئيسية وشرع فى اقامة مجمعات الحديد والصلب ثم الالمنيوم وخمس قواعد للصناعات الثقيلة واستمر العمل لاتمام المرحلة الثانية من السد العالى .. وصدر قانون الاصلاح الزراعى الثالث تأكيدا لاستمرار التحول الاجتماعى نحو الاشتراكية وطرح قانون تأميم تجارة الجملة والمقاولات وأعيد تقييم كل التجربة .
وأعلن عبد الناصر ان ما اغتصب بالقوة لايرد الا بالقوة وان القوة متكاملة عسكرية و اقتصادية وسياسية، وبالشعب والجيش معا .

ولم تنته المشكلة الفلسطينية وعلى العكس تماما فوجيء العالم كله بالفلسطينيين الذين كان لا بد أن ينزع قلوبهم وينتهون الى اليأس، يتحولون الى ثوار مقاتلين يلحقون باسرائيل هزيمة فريدة فى نوعها فى معركة الكرامة وبعد أشهر من النكسة وأن يتحول لاجئو الخيام الى فدائيين يحيطون بالدولة المنتصرة المزهوة ويزعزعون أمنها وغرورها . وبدأت مرحلة وتاريخ جديد للثورة الفلسطينية تجاوز كل ما تصوره الاطراف جميعا .

ولم ينحسرمد الثورة العربية ولا دور مصر الطليعى فيها .. وحيما انعقد مؤتمر القمة العربى فى الخرطوم كان عبد الناصر هو الشخصية الحاسمة ولم يناع أحد فى ذلك وخرج المؤتمر بتأكيد اصرار العرب على المقاومة ولم تنطفئ الجذوة أو تنضب الحيوية وتم الانقلاب فى السودان وقام نظام حكم يقف جنبا لجنب مع مصر.. وكان السودان هو " ظهر " مصر.. وكانت الامبريالية تريده دائما شوكة فى ذلك الظهر .

ثم وقع الحدث الآخر الذى غير كل الموازين وهو ثورة ليبيا.. وكانت ليبيا قاعدة استراتيجية أساسية منطقة حزام وحائط عزل وحصار ضد مصر.. بالنسبة للاستراتيجية الامريكية وكانت حقل بترول خصب.. من أهم الموارد بالنسبة للغرب .. وأحيطت ليبيا لهذا بكل الضمانات من قاعدة هويلس أكبر القواعد خارج الولايات المتحدة الى الاسطول السادس الى كل قوات حلف الاطلنطى .

وكانت ثورة مؤيدة لمصر.. هو آخر مايمكن ان يحدث فى تصورهم .
واشتد القلق فى دوائر الغرب من تلاحق وتعاطم الاحداث واستبد الخوف من أن تقوم دولة كبرى جديدة فى شمال شرق افريقيا من مصر والسودان وليبيا تكون خطرا يهدد المصالح الاساسية للغرب !

ولهذا كله نسأل الدكتور " أين الانهيار الذى عاد بمصر خمسين عاما الى الوراء ؟ " .
وقد رأينا الافاضة بعض الشيء في قصة ٥ يونيو لان تهمة تزييف التاريخ ليست عبثا . ونرجو ان
يقتصد الدكتور فى توجيهها بلا حساب .

غطاء الاسئلة!

وقد سئل الدكتور السؤال الطبيعى والذى يسأله البسطاء لا العلماء .. لو كانت اشتراكية عبد الناصر
ونظامه خرافة ، ولو كان ما حققه هو فاشية رأسمالية ولصالح البورجوازية.. فلماذا ا يصب الرأسماليون
بهذه الحملة المجنونة عليه.. ولماذا يريدون محو كل أثر لعصره ولماذا يريدون تصفية كل الاجراءات
الرأسمالية البورجوازية التى تمت لصالحهم . وعند الدكتور لكل السؤال جواب بل ورد غطاء . وهو
يبدأ بتشخيص ما يحدث الآن وأنه ليس هجمة لليمين على الاشتراكية ولكن " ان اليمين يستغل أوجاع
الشعب المترتبة على التجربة السابقة من أجل كسب أرض جديدة .. وهذا هو ما أردت أن أقوله لو
فهموا مقالاتي جيدا " وهو يؤكد فى موضع آخر " ان اليمين يضرب على نغمة أوجاع الناس وشكاواهم
بحيث يستطيع ان يكسب ثقتهم وينحرف بهم في اتجاهه الخاص " .

أى أن أوجاع الشعب المترتبة على تصفية الاقطاع وتوزيع الارض وعلى تصفية الرأسمالية والمترتبة
على تعميم التعليم ومجانيته كل هذه الاوجاع الشديدة الوطأة تجعل فى استطاعة اليمين أن يكسب ثقة
الشعب وان ينحرف به الى اتجاهه الخاص أى يعود به مرة أخرى الى الرأسمالية والاقطاع .. لن يبحث
الشعب عن اشتراكية أفضل ولكن سوف يعود الى أغلاله القديمة !

والفلاحون الذين يستمتتون فى الدفاع عن الارض التى وزعت عليهم ، والعمال الذين يستبسلون فى
الدفاع عن القطاع العام .. والمتفقون الذين هبوا للدفاع عن حق التعليم وضد الجامعات الاهلية الطبقية..
كل هؤلاء خيالون لا يوجدون لان الدكتور لا يعترف بهم !

ويعود الدكتور فى نفس البحث ليقدم اضافة مبتكرة.. ومتناقضة كالعادة.. " ولكنى لم أقل ان اليمين
انفنع من التجربة الناصرية بل اننى أعرف أنه أصيب بأضرار بالغة تفسر هجومه الحالى ولكن المشكلة
هى ان الضربة التى وجهت الى اليمين لم تكن لحساب الاشتراكية الحقيقية بل لحساب النظام نفسه ..
وهذا هو العنصر المميز والفريد في التجربة الناصرية " .

ولا يفهم أحد- علميا- هذا الرأى الساذج .. ماذا يعنى النظام نفسه ؟

ان أى نظام لا بد أن يمثل مبادئ ومصالح طبقات وفئات وقوى اجتماعية معينة .. وهو اما أن يمثل
الطبقات الكبيرة والمالكة واما ان يمثل الطبقات الصغيرة والمعدمة ولا يمكن أن يقوم نظام لايمثل أحدا..
ولا يمثل سوى نفسه .. لايقوم نظام فى الفراغ والهواء ولايعتمد على أحد ومنعزلا عن الاغنياء والفقراء.
ويعرف العلماء والباحثون ودارسو المذاهب والنظم أنواعا كثيرة منها.. هناك نظم اقطاعية يحكم ويملك
فيها الاقطاعيون ونظم رأسمالية تقوم لصالح الرأسماليين ونظم فاشية لصالح كبار الاحتكاريين ..
وهناك نظم اشتراكية أو شيوعية لصالح الفقراء والمضطهدين ويقوم بالحكم فيها ويملك ويحكم العمال
والفلاحون.

ولكن نظما تقوم لنفسها وبنفسها ولا ترتبط بأى القوى أو الطبقات العليا أو الدنيا.. فهذه ظاهرة جديدة
فريدة حقا .. أول من اكتشفها وقال بها هو الدكتور.. وكان لا بد أن يهتم باكتشافه الجديد كثيرا وان يقف
عنده طويلاً وينفع بذلك الناس ويفحم المعترضين .

ان النظام الذى ظل في السلطة ثمانية عشر عاما ، والذى أقام الدنيا وأقعداها وأثار كل ذلك الجدل وكل
ذلك التأييد والمقاومة لم يمثل أحدا سوى نفسه .. وكل التغييرات التى أحدثها فى حياة مصر وفى حياة
كل المنطقة وهى أعمق ما حدث فى كل تاريخها.. لم تكن باسم أحد أو لمصلحة أحد سوى النظام نفسه.
لقد طرد الانجليز لحسابه وقاوم الأمريكيين لحسابه. والتحم بالعرب وانضم للأسيويين والافريقيين
وتصادق مع الثوريين والاشتراكيين كل هذا لحسابه .

وقد وزع النظام أرض الاقطاعيين على نفسه.. وأمم مصانع وبنوك الرأسماليين لنفسه وأنشأ المصانع
الجديدة الثقيلة والخفيفة لرجاله.. وليس لاي أحد آخر .

وفتح النظام المدارس والمعاهد والجامعات لا للجميع ولكن لنفسه ، وقصر دخولها على رجاله وأبنائهم وبناتهم فقط .. وقاد النظام كل الحروب العاتية والمعارك الصاخبة لا باسم مصر أو العرب أو فى سبيل الحرية أو الاشتراكية ولكن لحسابه وحفاظا على نفسه !

ولا يقول الدكتور ماهى هذه " النفس " التى يمثلها النظام ويلومنا أشد اللوم لاننا لا نفهم . والعالم المفكر.. المتميز.. مثل الدكتور .. اذا ما عثر على نظام لم يسبق مثل هذا فلا بد وان يقتله بحثا وشرحا ويضيف به الى العلم والفكر السياسى اضافة مبتكرة .. ولعله يسمح لنا أن نفعل . اذا كان الدكتور يعنى بهذا ان النظام هو عبد الناصر وأنه قام لصالحه وحده فلا بد ان عبد الناصر قد امتلك كل الارض وأنشأ لنفسه كل المصانع والبنوك وافتتح لنفسه كل المدارس ، وكان لا بد أن ينتهى النظام بعده مباشرة . ان تعود الارض الى مالكيها وان تغلق المصانع والمدارس أو تؤول الى وراثته الشخصيين .

وإذا كان الدكتور يعنى ان النظام قد أقام طبقة جديدة احتكرت السلطة والثروة لنفسها ، فأن الطبقة الجديدة بالمعنى الذى يقصده الدكتور لابد ان تكون فى جوهرها بورجوازية رأسمالية وفى اطار الصراع الطبقي الذى يحدث فى مصر والذى يزداد حدة وفى اطار المشكلة الاجتماعية التى تهدد الكيان الطبقي .. لابد وان تنضم كل القوى البورجوازية والرأسمالية لهذه الطبقة الجديدة.. الفتية القوية التى تقدم لها أثنى ما تحتاجه وهو الحماية من الثورة . وبذلك يصبح النظام ممثلا لحلف هذه القوى والطبقات .. ولا بد أن تباركه وتؤيده الرأسمالية والامبريالية العالمية التى لا تطمح الى نظام أفضل فى مصر .

وإذا كان الدكتور يعنى ان ماوجه الى اليمين من ضربات لم تكن لحساب الاشتراكية الحقيقية فهو يعنى ان الارض التى أخذت من الاقطاعيين لم توزع على الفلاحين .. ولم يستفد منها فلاح ولكن ذهبت الى النظام وان المصانع التى أنشئت والتى أمتت لم تكن للعمال والفنيين والمديرين وكل العاملين بها.. ولكن سلبها النظام لنفسه.. وان الثروات.. لم توجه الى التنمية الشاملة ولتحقيق الكفاية والعدالة ولكن الى جيوب النظام نفسه.. وحينئذ يكون على الدكتور أن يشرح لنا ما هى الاشتراكية الحقيقية.. ويبقى عليه أيضا أن يستقصى بحزبه على الحقيقة أين ذهبت الارض ومامصير المصانع.. وما الذى حدث للمدارس .. وان يثبت لنا بالوقائع والارقام .. كيف صادر هذا الشخص الاعتبارى " الوهمى " المسمى بالنظام كل حقوق واثروات البلاد !

وقد شخص النظام بأنه اصلاحى ولم يقم سوى ببعض اصلاحات قد تكون كبيرة أو صغيرة ولكنها تظل فى اطار النظام " الرأسمالى " ولا تغير من جوهر الاشياء وليس اشتراكية بأى حال . ولا يفسر أصحاب هذا الرأى كيف يتحقق اصلاح الرأسمالية بتجريد الرأسماليين من " رأس المال " ويتأميم أهم مراكز ومقومات الثروة لحساب الشعب .. وبالغاء الاسس التى يقوم عليها النظام الرأسمالى .. الملكية الفردية الكبيرة والسوق الحر.. الخ .

ولا يفسر أصحاب هذا الرأى كيف تخلى الرأسماليون عن الثورة . حتى قبل اعلان القوانين الاشتراكية.. وبسبب تدخل الدولة على نطاق كبير فى الاقتصاد وليس تأميمه وكانوا يريدون اقتصادا حرا حرية تامة.

ولم يفسروا أيضا سر الحملة الذى بدأت منذ ١٩٦١ والتى تبلغ ذروتها الان .. كيف تشن الرأسمالية هذه الحملة المحمومة على نظام لم يكن يريد سوى اصلاح النظام الرأسمالى لكى يبقى ويعيش ! وشخص البعض الآخر النظام بأنه " رأسمالية الدولة " قد تكون لها بعض الايجابيات فى التنمية وفى تلك المرحلة ولكنها ليست الاشتراكية .

وفى رأسمالية الدولة تقوم الدولة بمهام الرأسماليين ونيابة عنهم .. وهى تتحمل المغامرة والمخاطرة وتبعتات الانشاء لتقيم القاعدة التى يبنى عليها الاقتصاد والمشاريع الكبرى التى يعتمد عليها ثم تبعتها أو تسلمها ناضجة جاهزة للرأسماليين وتوفر كل المقومات لتقوم طبقة رأسمالية جديدة وقادرة تملك الاقتصاد وتديره.. حرة!

ولا يفسر أصحاب هذا الرأى أيضا لماذا تؤمم المشاريع الرأسمالية القائمة فى ظل رأسمالية دولة ولماذا بقيت كل المشاريع الكبرى التى قامت ونجحت فى ملكية الدولة ولا تنتقل الى الرأسماليين وكيف تكون الولاية للقطاع العام ويحدد اطار محدود للقطاع الخاص فى ظل رأسمالية دولة .. وكيف يناصر

الرأسماليون أشد العداء لنظام كان يريد أن يؤمن رؤوس أموالهم ويغنيهم عن احتمالات الفشل والخسارة وان يهيبء لهم مقومات الازدهار.

والرأسمالية نظام له أسسه ومقوماته المعروفة وقد تختلف تطبيقاتها الرأسمالية فى أوروبا عنها فى أمريكا الشمالية أو فى استراليا ولكنها تظل رأسمالية تتفق فى الجوهر وتختلف فى الشكل . وللأشترابية أيضا نفس الخصائص وقد يختلف فى التفسير أو التطبيق ولكن طالما اتفقت فى الاسس العامة فهى أشترابية وليست رأسمالية.

وإذا ما أمتت دولة ٨٥% من الاقتصاد الرأسمالى من المال والصناعة والتجارة وحولت ملكيتها الى ملكية عامة للشعب.. وإذا حددت دولة الملكية بخمسين فدان للفرد ومائة للأسرة وإذا اختارت التخطيط وليس اقتصاديات السوق أساسا للتنمية فمن الصعب أن لا تكون أشترابية وقد قال البعض ان النظام هو " نظام لارأسمالى" ليس رأسماليا ولكنه أيضا ليس أشترابيا وهو قد يصل الى الأشترابية وقد لا يصل اليها وفق اضطراب مسيرته ووفق موازين وصراع القوى داخله .

وهذا تعريف جديد وماركسى للنظم التى اختارت الأشترابية فى العالم الثالث اختيارا حقيقيا ولكن على أساس غير الماركسية اللينينية وبقية حلف القوى الوطنية والتقدمية وليس الحزب الشيوعى .. ومع أن التعريف قد استمد من التجربة المصرية واستلهمها وكان تحولا فى الموقف الماركسى وتغييرا ايجابيا الا أن مصر تظلم كثيرا اذا ما أعتبرت احدى دول العالم الثالث كأي دولة أخرى والتجربة المصرية تظلم اذا ما أعتبرت " لا رأسمالية " فقط .. وقد كان الاختيار حاسما للأشترابية " العلمية " وكان مستمدا من التجربة والتفكير ومن الواقع المصرى ومن تجارب وروح العصر معا وكانت التحولات التى تمت أعمق التحولات فى ملكية وسائل الانتاج وفى علاقات الانتاج فى أى بلد خارج المعسكر الأشترابى.. وكانت مجرد البداية.. وليست مجرد لا رأسمالية ولكن تحولا جوهريا الى الأشترابية.

وقد انتقدت التجربة " الناصرية " وكانت ماثرا أشد الجدل وانتقد القصور الفكرى والنظرى للتجربة أو أخطاء وسوءات التطبيق ولكن كان ذلك فى إطار الاعتراف بأشترابيتها وكان هذا التشخيص أو النقد على اختلافه يصلح ان يكون محل نقاش .. بمعايير ومقاييس العلم والعقل .. ولكن تعريف النظام بالتجربة الناصرية وبأنها كانت نظاما فريدا متميزا ليس رأسمالية وليس أشترابية وليس سوى النظام نفسه .. فهو يتجاوز امكانية الفهم والجدل !

وقد انتقل الدكتور من القول بأن النظام لم يصب بأوجاعه سوى الشعب وان اليمين يستغل هذه الاوجاع ليكسب بها ثقة الشعب بالفعل الى القول بأن اليمين كان يحرق البخور للتجربة المصرية الأشترابية ثم الى القول بأن اليمين قد أصيب بأضرار بالغة من التجربة ولكن كانت لحساب النظام نفسه . ولانعرف أين الحقيقة حتى يوضح الدكتور !

الامبريالية

وقد سأل الدكتور السؤال الآخر والمكمل .. اذا كان عبد الناصر قد أقام ذلك النظام الذى لم يكن وطنيا ولا أشترابيا حقيقيا فلماذا حاربه الامبريالية بهذا العنف ولا شىء يسعد الامبريالية مثل قيام هذه النظم المتداعية فى العالم الثالث ويدور جهد ونشاط اقلام المخابرات الامبريالية حول تدبير الانقلابات التى تؤدى الى هذه النظم التى تكون أداة طيعة فى يدها ... واذا كان النظام فى مصر قد جاءها بلا عناء او تدبير .. فلماذا لم تتبناه فيتحمس لها .. بدلا من اعلان حرب ضارية عليه .

ولا يعدم الدكتور اجابة أبدا وهو يقول " واما الامبريالية العالمية فإن هجومها على التجربة الناصرية يرجع فى رأيي الى اعتبارات التوازن الدقيق بينها وبين المعسكر الأشترابى العالمى ، فقد توسع الوجود السوفيتى فى أواخر العهد الناصرى الى الحد الذى قررت معه الامبريالية ضرورة توجيه ضربة اليه وكان هذا الوجود بالنسبة الى التجربة الناصرية اجراء تكتيكيا أما بالنسبة للاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة فكان اجراء استراتيجيا أى أن ما كانت التجربة الناصرية تراه سياسة مرحلية تخدم اغراضا مؤقتة كان فى نظر العملاقين الدوليين سياسة بعيدة المدى تؤثر على التوازن الدقيق الذى يحرص عليه كل طرف ازاء الآخر.. " .

وهكذا لم تحارب الامبريالية عبد الناصر لأنه هزم الاستعمار القديم ولأنه وقف حائلاً دون الاستعمار الجديد ولم تحاربه الامبريالية لأنه رفض الاحلاف ونظريات ملء الفراغ .. ولم تحارب الامبريالية عبد الناصر لأنه أراد تحرير العرب وأراد توحيد العرب لكي تقوم قوة عربية كبرى مستقلة وعصرية .. لا .. لم تحارب الامبريالية عبد الناصر لشيء من هذا .. ولكن حاربتة لأن الوجود السوفيتي توسع في مصر في نهاية عهده وكان توسعاً أخل بالميزان الدقيق بين الدولتين الأعظم .. وهو الميزان الذي كان يجب أن يحرص أشد الحرص في المحافظة عليه .

ولقد كان خطأ أن تقيم مصر هذا القدر من العلاقات مع الاتحاد السوفيتي وأن تحصل على ذلك القدر من الاسلحة وذاك القدر من المصانع لأن مصر بهذا أثارت الامبريالية العالمية وهددت أركان التوازن الدولي .. وهو توازن يرى الدكتور أنه مشروع ومن حق الامبريالية وواجبها أن تدافع عنه .. ضد مصر .

ولقد كان تسليح مصر وتصنيع مصر لتردد العدوان وتحرر من التخلف اجراءات تكتيكية .. أما التوازن بين روسيا وأمريكا فهو قضية جوهرية واجراء استراتيجي .. ولا بد أن تحرص عليه مصر أكثر مما تحرص عليه روسيا التي بادلتنا العلاقات .

ويصل الدكتور الى حد القول " كانت المساعدات الامريكية لاسرائيل قبل حرب يونيو واثناءها وبعدها موجهة في المقام الاول ضد النفوذ السوفيتي لا ضد التجربة الناصرية من حيث هي نظام داخلي " . وبهذا يعترف الدكتور ويقر بأن العلم العربي ومصر هما منطقة نفوذ دولية ولا بد من هذا ولا غضاضة فيه ولكن يجب أن يكون النفوذ الاجنبي موزعاً بميزان دقيق بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي حتى لا يطغى وجود أحدهما على الآخر ومن الأفضل أن يكون النفوذ السوفيتي في أضيق الحدود حتى تطمئن الامبريالية ولا تستفز .

ويعترف الدكتور بأن للامبريالية الحق والشرعية في حماية مصالحها المشروعة وان تصحح ميزان القوى الدولي اذا اختل .

ويعترف الدكتور أيضاً بأن للولايات المتحدة الحق في مساعدة اسرائيل قبل حرب يونيو واثناءها وبعدها لان مصر هي التي دفعت الولايات المتحدة لهذه المساعدة بسبب توسع الوجود السوفيتي الذي سمحت به مصر .

وينتهي هذا المنطق " الفريد " بانه ليس لمصر الحق في سياسة خارجية حرة وليس لها حق الاختيار بين من تصادق ومن تعادى بل ان واجبها الاول والأخير هو أن تحرس الميزان بين الدولتين الأعظم . والدكتور وطني ويساري .. وهو كما يقول يساري غير محترف أي مستقل الفكر والرأي لا يتقيد إلا بتفكيره وضميره .

والوطني اليميني واليساري على السواء يرى أن الامبريالية " العالمية " الجديدة تريد أن تترث الامبراطوريات القديمة وسياستها الاستعمارية ثابتة تتجدد ولا تتغير وهي تريد ان تسيطر على العالم خاصة العالم العربي لاعتبارات استراتيجية واقتصادية . ومقاومة الامبريالية واجب وطني يتقدم كل الاعتبارات وكل تاريخنا ومبرر حياتنا ووجودنا هو تحقيق الحرية والسيادة بمقاومة الاستعمار .. ولا يمكن أن يقوم أو يصح توازن أو توافق دولي على حساب الحقوق الاساسية لشعب ما ولشعب مصر خاصة .

والشعب الذي يخضع استقلاله وسيادته للموازنات والمساومات الدولية ليس أهلاً للحرية ولا يمكن ان تلتزم مصر بأي ميزان أو اتفاق يعقد بين دول أعظم أو أصغر لا تكون طرفاً فيه أو توافق عليه . وهذه بديهيات ..

والوطني اليساري مثل الدكتور يرى أن الاتحاد السوفيتي ليس فقط دولة أعظم مثل الدولة الاخرى ولكنه دولة اشتراكية تنصدر معسكر اشتراكي .. لاينكر عليه الدكتور صيغة الاشتراكية .. ولهذا فهو ليس استعمارياً وليس رأسمالياً .. ومن حق مصر التي تقاوم الاستعمار والتي ترفض الرأسمالية أن تتصادق وتتحالف مع هذا المعسكر وإلى أي مدى تقرره .

ولا يمكن ان تسمى هذه العلاقات وجوداً لأن الوجود يفرض فرضاً ولأهداف الدولة التي فرضته وبحيث لا تستطيع الدولة الأخرى أن تدفعه وتحرر منه .

ولم تكن العلاقة المصرية الروسية وجوداً .. مفروضاً . وقد بدأت العلاقات مع الاتحاد السوفيتي بعد غارة اسرائيل على غزة في فبراير سنة ١٩٥٥ وهي غارة قال عنها بن جوريون انها " لاسقاط هيبية النظام الجديد في مصر " وكان لا بد لمصر أن تحصل على السلاح الذي تحافظ به على هيبية النظام . ودفعت الوطنية المصرية الى الطريق الوحيد للسلاح .. بعد رفض الغرب ان يبيعه وتوثقت العلاقات مع الاتحاد السوفيتي بعد بناء السد العالي وقد رفض الغرب بناءه وشن حرباً كاملة على مصر بسببه . وكان السد العالي أساس التنمية والتصنيع وأن تتحرر مصر أ و لا تتحرر . ولم يكن الاتحاد السوفيتي الذي يقدم السلاح الى شعب يستमित في الدفاع عن حريته ليتصور انه يستطيع أن يفرض وجودا علينا .

ولم يكن الاتحاد السوفيتي الذي يبيع لمصر كل مقومات التنمية والتصنيع ليحقق استقلالها الاقتصادي ليتصور أنه يستطيع استغلال مصر .

ولقد كانت العلاقات وثيقة والمساعدات ضخمة بقدر وطأة الخطر الاستعماري وعمق التخلف .. ولكن ظلت العلاقات دائماً متكافئة تكافؤاً تاماً ولم تقم العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتي على أسس " تكتيكية " أو انتهازية وكان لها أساسها العملي " الجيوبوليتيكي " وأساسها النظري " الايديولوجي " . كان الشرق الاوسط هو الحدود المباشرة للاتحاد السوفيتي وقد بدأت منه الحرب الباردة لحصاره وتصفيته وكان الامن القومي للدولة السوفيتية يتطلب أن لا يسود الغرب في الشرق الاوسط وأن يكسر الاتحاد السوفيتي الحصار الذي فرض حوله .. ولم يكن للاتحاد السوفيتي في الشرق الاوسط من يمكن أن يصادقهم ويحالفهم سوى قوى التحرر و الثورة العربية بزعامة وقيادة مصر .

كانت تركيا والبورجوازية التركية قد اختارت الغرب بل وذابت و اندمجت فيه وكانت ايران و الاقطاعية الايرانية قد بيعت بعدها وقررت باكستان أن تكون " الحليف رقم ١ " و الذي تبدأ وتنتهي اليها أحلاف الغرب، وكانت القوى التقليدية العربية معهم جميعاً في حلف بغداد ولهذا فإن قوى الثورة العربية والتي تريد تحرير المنطقة من الغرب هي أفضل حلف يعتمد عليه في تحقيق أمن الدولة السوفيتية وبطنها " الناعم " في الشرق الأوسط بل هي الحليف الوحيد . وكان الاساس " الايديولوجي " يقيس الأهمية .. و الالتزام .

والاتحاد السوفيتي دولة ماركسية لينينية وترى الثورة في العالم ذات ثلاثة أجنحة .. الثورة العمالية في الغرب ضد الرأسمالية والثورة الوطنية في الشرق ضد الاستعمار والاشتراكية القائمة فعلاً في المعسكر الاشتراكي وعلى هذه القوى الثلاث أن تتحالف وتتساند ضد العدو المشترك وهو الرأسمالية والاستعمار .

وقد تختلف الثورات في تفكيرها أو تفسيرها أو مسارها ولكن يجمعها الهدف المشترك ضد الاستعمار والاستغلال ولا بد أن تتساند والى أقصى مدى " والوقوف مع الثورة العربية والثورة المصرية مركز الطليعة هو التزام عقائدي على الحلف والمعسكر الاشتراكي . وكلما تعاضم كفاح مصر والعرب ضد الاستعمار والاستغلال كلما تعمق الالتزام .

وتعتمد الدول المكافحة أساساً على قواها الذاتية ولكن أيضاً على مواقف وتأييد القوى الدولية ولا بد أن ترى قضاياها في اطار العالم والعصر وأن تميز وتفرق تماماً بين مختلف القوى وعليها أن تدرك متناقضات ومتغيرات العصر وتستخدمها جميعاً في صالحها ولا تكون اسيرتها أو ضحيتها .

وقد استخدمت مصر الحديثة لدى قيامها في عصر محمد علي التناقض والصراع الفرنسي البريطاني ، وكان الصراع الأول في ذلك العصر بل وحاولت مصر يومئذ إقامة علاقات مع روسيا القيصرية ضد الدولة العثمانية المستعمرة وجاءت أول بعثة " روسية " إلى مصر في ذلك العصر ! واعتمدت الحركة الوطنية المصرية أيضاً على التناقض البريطاني الفرنسي الذي ظل قائماً حتى عقدت الدولتان الاتفاق الودي في بداية هذا القرن .

ومنذ نهاية الحرب العالمية الاولى وقيام الثورة في روسيا كان لا بد وأن تفيد كل الدول المكافحة من هذا التناقض الجوهري والتغير في موازين القوى الكبرى وقيام دولة عظمى معادية للاستعمار والاستغلال وهذا ما حدث بالفعل .. لثورات الصين وتركيا و ايران .

وبعد أن أصبحت دولة أعظم وتتصدر معسكر احدى القوى الاساسية فى العالم لم يكن ممكنا أن لا تفيد الدول التى تحارب معاركها الحاسمة من أجل الحرية أقصى الفائدة منها.

وقد استخدمت الثورة المصرية التناقض فى صفوف الدول الامبريالية بين الاستعمار القديم والاستعمار الجديد الأمريكى كما استخدمت التناقض الاخر الاساسى بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة وبين المعسكر الاشتراكى والمعسكر الاستعمارى عامة وبادراك دقيق واع لاختلاف نوع التناقض .. ولم تكن هناك سياسة خارجية أفضل أو بديلة سوى الوقوع فى التبعية .. على أى الناحيتين!

ولهذا فقد كان هناك الاساس العملى " الجيوبولتيكى " والمحتوم للعلاقة بين مصر والاتحاد السوفييتى . وكان هناك الاساس النظرى والايديولوجى للعلاقة .. وقد يكون لكل منهما مبادئه ونظمه المختلفة ، ولكن هناك إتفاقا مشتركا على أهم الاهداف وهى رفض الاستعمار والاستغلال وتحقيق الحرية والاشتراكية .. وبالنسبة لمصر يتحقق هذا عن طريق مصري عربى علمى وبالنسبة للاتحاد السوفييتى عن طريق الماركسية اللينينية .. هناك اختلاف ولكن ليس هناك تناقض أو عدا .

ولم تكن العلاقة المصرية السوفييتية وجودا وتوسعا ، وتسلا سوفييتيا الى مصر .

ما يقوله الدكتور وهو نفس ما يقوله اليمين المتطرف والمتخلف فى مصر .. وقد كان أول من خرج بهذه الاراء أحد فقهاءهم " وحيد رأفت " فى منبر من منابرهم " مجلة السياسة الدولية " .

ووفقا لفهم الدكتور يصبح واجبا علينا أن نشكر دائما ونعترف بجميل الولايات المتحدة فى حرب سنة ١٩٦٧ ، لأنها أرادت أن تخلصنا من بلاء مزدوح هو الوجود السوفييتى والنظام الناصرى ، ونشكر اسرائيل خاصة أنها قامت بالعمل !

وهذه رؤية " يسارية " فريدة للتاريخ و الاحداث !

اشتراكية الدكتور

ويعود الدكتور ليقدم كل هذا التناقض باسم الاشتراكية ودفاعا عنها وهذه اشتراكية خاصة غريبة لم يعرفها.

ان اشتراكيته هى النقيض لكل ماحدث فى مصر .. وبالنسبة له كان المساعدات الامريكية المشروعة التى قدمت لإسرائيل لتوجه الى التوسع السوفييتى فى مصر وليس إلى التجربة الناصرية كان لها فضل آخر.. فقد أدت " الى هزيمة ٥ يونيو التى أدت الى كشف البناء الهش للاشتراكية لمطبقة محليا " .

وهذه الاشتراكية الهشة " استكملت معظم المقومات الشكلية لاي تجربة اشتراكية مثل تصفية الاقطاع ورأس المال المستغل والتمصير والتأميم واقامة قطاع عام قوى واسع النطاق . كل ماتطلبه الاشتراكية كان موجودا " .

ولكنها مع ذلك ظلت هشة لان كل شىء كان موجوداً " فيما عدا شيئاً واحدا هو لب الاشتراكية وقلبها وجوهرها هذا الجوهر هو الذى افتقده الشعب المصرى وهو الذى لم تفتقده شعوب أخرى " .

ويخرج الدكتور بتعريف لهذا اللب والقلب والجوهر بأنه " النهوض بالانسان و اتاحة الفرصة أمامه لى يمارس قدراته وملكاته الابداعية دون قهر أو ظلم " .

وهذا قد يصلح شعارا فى مظاهره وقد يكون دعوة صالحة لنصرة الحق ولكنه ليس التعريف النموذجى للاشتراكية المثلى .. الذى تقاس به أصالة وصلابة الاشتراكية .

والاشتراكية الهشة لاتحرص على استكمال كل الشكليات وهى " لا تصب اليمين بأضرار بالغة " .. والاشتراكية الهشة تسقط عادة بعد وفاة مؤسسها ولا تجد من يدافع عنها.. وهى لا تسحق روح الانسان، ولا تحتاج الى كل هذا العناء ليهاجمها الدكتور وكان يكفى أن يسجل وقائع تأكلها وذبولها .

والاشتراكية هى حلم الانسان وطريق خلاصه ولكنها أيضا لىست جنة غناء ويصل اليها الناس فجأة وبعد طول العناء أو تفتح أبوابها لتسعهم جميعا وتحقق لكل فرد أحلامه ويجد فيها النعيم .. والاشتراكية حرب مستمرة ومستميتة بين فلسفتين وعالمين ونظامين ولا يغير من شىء أن تقوم الاشتراكية سلميا أو أن تقوم بحرب طبقية وهى تستمر قبل الاشتراكية وبعدها ولزمن طويل ، لعصر كامل من التاريخ !

وفى الاتحاد السوفياتى أول بلد قامت فيه الاشتراكية لا ينقطع الكفاح نظريا وتطبيقياً ضد بقايا الرأسمالية ، ورواسبها وذلك بعد سنتين عاما من قيام النظام .
 وفى الصين قاموا بثورة أخرى هى " الثورة الثقافية العظمى " بعد سبعة عشر عاما من الثورة وبعد أربعين عاما من حرب التحرير وذلك لحماية النظام من " عودة الرأسمالية " .
 وفى يوغوسلافيا أو كوبا .. أو بولنده .. أو فى بلاد العالم الثالث التى اختارت الاشتراكية يظل التحدى قائما وحادا لزمن طويل جدا .
 ويصل الصراع الى أقصاه فى المواقع الحاسمة حضاريا وسياسيا على خريطة العالم وحيث يؤثر الاختيار خارج حدود الدولة وعلى حياة العصر وموازينه عامة.. وفى المقدمة مصر .
 وليس هناك ما يدحض مزاعم الدكتور وينفيها عن الاشتراكية الهشة سوى صمود الاشتراكية والاشتراكيين فى مصر.. وتعثر كل المحاولات لتصفيتها ولاقتلاعها.. وهذه المرارة فى نفوس اليمين لا تقوم بسبب اشتراكية هشة.. ولا تقوم الاشتراكية أو تأتى من الفراغ ولكن " تولد الاشتراكية فى رحم المجتمع القديم " وتحمل دائما كل بصماته.
 و الاشتراكية فى روسيا تحمل كل فضائل ونقائص الشعوب فى روسيا والاشتراكية فى الصين تحمل كل قوة وضعف الشعب الصينى والاشتراكية فى كوبا أو كمبوديا لا تختلف ولم تكن الاشتراكية فى مصر لتخرج بكل حسنات الشعب المصرى ومجردة عن كل ثغراته.. لا بد أن تحملها أيضا .
 ويختلف طريق كل بلد الى الاشتراكية.. وليس هناك خط سير محدد معروف يمكن أن تقطعه الشعوب.. ولهذا لا بد أن تحمل التجربة آثار كل عثرات وانحناءات الطريق .
 وقد قال لينين ذات يوم " ان الذين يحلمون بالاشتراكية طاهرة نقية سوف يموتون قبل أن يروها " .
 والذين يريدون اشتراكية نموذجية طاهرة نقية فى مصر وحدها ينقصهم العلم بالواقع أو بالاشتراكية ولا حق لهم فى الكلام عنها.

لا تناقض

ان الدكتور مع هذا كله يرفض تماما أن يؤخذ عليه تناقضه وهو فى النهاية يلقى برهانه .. ومن بين أربعين مقالا كتبها فى الفكر والاشتراكية اختار مقالا واحدا " ليتضمن تكذيبا قاطعا لما يدعوه عنى من تناقض " .. وبخيلاء بالغة قال " هكذا كنت أكتب أثناء حياة جمال عبد الناصر فكيف كان نقادى يكتبون؟! .. وهل يعاب على أن أكتب فى العدد المخصص لثناء جمال عبد الناصر مقالا أخف لهجة من ذلك الذى كان مفروضا أن يظهر وهو حى " .
 ومقال المفكر الكبير ذى الاربعين مقالا والذى يفحم كل نقاده هو " عن بعض سلبيات اشتراكية العالم الثالث ولم يكن القارىء عندئذ يجد أى صعوبة فى فهم نوع الاشتراكية التى أعنيها " .
 وقد كانت أخطر سلبيات هذه الاشتراكية عند الدكتور هى " سكوتها عن التفكير الغيبى أو تعايشها معه.. وهذا انتهازية ونفاق رخيص من جانب السلطة الحاكمة فضلا عن أنه يساعد على ابقاء الجماهير فى حالة تخلف معنوى لا يرجى منه أى نهوض للمجتمع بل ان مثل هذه الاشتراكية لا بد أن تكون جوفاء ميتورة " .
 وأضاف أيضا وبنفس الجرأة " ولقد كان من الممكن أن تخف اضرار التفكير الغيبى لو كانت تلك الاشتراكية تقدم للناس مكاسب واضحة اما اذا كانت الاشتراكية مترددة خائرة واذا كانت مكاسبها أمرا مشكوكا فيه على الدوام فعندئذ تستطيع الخرافة أن تطل برأسها فى شماتة " .
 وتحدث الدكتور عن عيب آخر لهذا النوع من الاشتراكية ينبع من التفكير الغيبى ومن سيادة الخرافة هو " انها مفروضة من أعلى وليست نابعة من ثورة شعبية ، بالمعنى الصحيح ولهذا نجد فى هذه الاشتراكية أن الانحراف فى الطبقات الحاكمة أمر مألوف حيث يبدو اغرار السلطة والافتقار الى التقاليد الثورية الاصلية عاملا مشجعا على تكوين طبقة جديدة .. ربما استخدمت الاشتراكية ذاتها أداة لدعم مركزها وصرف أنظار الجماهير عن انحرافاتهما " .

ولنقف قليلا أمام هذا الموقف التاريخي .. لقد كانت هناك حرية اذن ولم يكن الدكتور يفتقر الى الشجاعة ولكن الكاتب والمفكر في مثل نزاهة وشجاعة الدكتور لابد وأن يصف الاشياء باسمائها ولا يمكن أن ننقد اشتراكية العالم الثالث .. بحيث ينطبق النقد على غانا أو اندونيسيا أو الجزائر أو الهند والمفكر المسئول الملتزم الذي لا يخشى السلطة يكتب عن سلبيات الاشتراكية في الجمهورية العربية المتحدة اذا ما أراد أن يبقى مقاله للتاريخ وأن يفخر به ويباهي الناس .

ولا يبدأ الهجوم على الاشتراكية في " العالم الثالث " ولا ينصب على " التفكير الغيبي " ويعرف الدكتور ويدرك ولاشك حساسية الامر وتعقيده .

وقد كان حريا بالدكتور الذي لا يخشى في الحق لومة لائم أن يسجل التفكير الغيبي باسمه وان يهاجمه باسمه الصحيح هذا الهجوم الساحق .

ويعرف الدكتور جيدا أن اليمين لا يجد حجة يشرعها ضد الاشتراكية خاصة الاشتراكية العلمية أكثر من الغيبيات. ويعتقد أنه بهذا يصل الى الجماهير . ولا تبدأ الاشتراكية ابدا ولا يمكن أن تعنى استفزاز المعتقدات والمشاعر العميقة في نفوس الجماهير وتخلق هوة أو تناقضا روحيا أو فكريا في نفوس الناس .

وتفترق الاشتراكية الصحيحة بين الخرافة والشعوذة وبين الاديان والقيم الروحية الاصلية.. ولا ترى الاشتراكية تناقضا في أن يحقق الانسان السعادة في هذا العالم وفي العالم الآخر وهي لا ترى تناقضا في أن يبني المؤمنون وغير المؤمنين الاشتراكية معا .

وقد تغيرت مفاهيم اشتراكية وماركسية كثيرة حول قضايا الدين والغيبيات وذلك بعد ظهور دول العالم الثالث مهد الحضارات والديانات الاساسية والعريقة .

وقد كان دور الدين وغاندى في تحرير الهند ودور الاسلام في تحرير الجزائر و اندونيسيا ومصر ودور القسس الثوريين بل والماركسيين في قيادة انتفاضات هامة في أمريكا اللاتينية مما أدى الى حوار إيجابي متصل بين الاشتراكية العلمية وبين الغيبيات .. وقد تغير الموقف الكلاسيكي والتزمت الذى لازال الدكتور واقفا عنده لا يدري ما تجدد .

وقد وصلت الثورة المصرية الى صيغة مصرية خلاقة بين الدين والاشتراكية ورأت في الدين ثورة انسانية وفي الاشتراكية تحقيقا لذات وروحية الانسان وسدت أى هوة يمكن أن تقوم .. وكان هذا اضافة خلاقة للدين والاشتراكية العلمية .

ولا يمكن في الشرق العربى الذى كان مهد الديانات العظمى في حياة الانسانية ، اليهودية و المسيحية والاسلام ، والذى يعيش بالحضارات وطرق الحياة التى صاغت بها هذه الديانات حياة الانسان .. لايمكن أن تبدأ الاشتراكية فيه بهجوم جارف كاسح على " الغيبيات " .

ولا يمكن لمصر منارة العالم الاسلامى ومقر أقدم جامعاته وأعرقها والتي حفظت تراثه والتي خرجت منها أهم حركات الاصلاح الدينى .. لا يمكن أن تبدأ الاشتراكية باعلان الحرب على الغيبيات وبذلك تؤكد حجج الرجعية وتنتهى الى الانقسام بين الاشتراكية والناس .

وحتى الماركسيين التقليديين لا يدعون الى مهاجمة الغيبيات لدى الجماهير وأن يكون هذا هو أول المهام بل يدعون الجماهير الى العلم والتعلم ويفسرون الحياة والكون تفسيراً علمياً حتى تقنع الجماهير وحدها.. اذا شاءت .

وهناك جريمة من جرائم القانون العام في كل البلاد الشيوعية وهي اهانة أو استفزاز مشاعر المؤمنين أو العدوان على دين ما أو أشياعه .

والاشتراكية لا تقوم أساسا لمكافحة التفكير الغيبي أو القضاء عليه ولكن تقوم لبناء مجتمع جديد ويظل الايمان أو عدمه قضية كل فرد على حدة . وفي كل البلاد التى اختارت " الماركسية اللينينية " تعيش الملايين المؤمنة وتمارس عبادتها فى الكنائس والمساجد والمعابد وتتعايش الماركسية والدين ولم يقل أحد أن الاشتراكية جوفاء مبتورة مثلا في أوزبكستان المسلمة أو فى بولنده الكاثوليكية أو فى فيتنام البوذية.

ومهما يجعل الدكتور من الحرب على التفكير الغيبي نهاية مطاف الاشتراكية الا أنه يقدم وسيلة لتخفيف اضراره اذا لم يمكن الغاؤه تماما .

" من الممكن أن تخف اضرار التفكير الغيبي لو كانت الاشتراكية تقدم للناس مكاسب واضحة ، أما اذا كانت الاشتراكية مترددة خائرة واذ كانت أمرا مشكوكا فيه على الدوام فعندئذ تستطيع الخرافة أن تطل برأسها .

وهذا في أفضل الاحوال نصائح مقدمة للاشترائيين لمكافحة الخرافة .
وهي شروط يضعها لكي يمكن أن تخف حدة الغيبيات اذا لم يمكن القضاء عليها نهائيا . وهدف الاشتراكية في العالم الثالث يبدأ بالقضاء على الفقر والبطالة والامية التي تولد الخرافة والاشتراكية هي تصفية النظام الذي يولد كل هذا .
ونقد الاشتراكية يكون بنقد جاد للتغير في الكيان الاجتماعي وبعمق وأصالة التحول والتطور وبمعدلات التنمية لا بنقد الميثاقين .

وإذا كان الدكتور يريد أن يوحى بأنه كان يعنى بهذا الاشتراكية في مصر فان هذا هو نوع النقد الذي كان أبعد ما ينطبق على مصر . . والذي لم يكن أحد ليتصور في ذلك الحين أنه ينطبق عليها بل ان هذه المبالغة والتطرف في النقد . . كانت أفضل ما يبعد الشبهة عن انها موجهة الى مصر .
وربما كان هناك في ذلك الحين من يعتقد أن الاشتراكية لم تقدم أى مكاسب للشعب أو ما يكفى من المكاسب للشعب ، ولكن لم يكن هناك من يمكن أن يدعى بأن الاشتراكية في مصر لم تقدم أى مكاسب للشعب أو لم تقدم مكاسب واضحة للشعب .

وقد كان ممكنا اتهام عبد الناصر بكل التهم الا تهمة " التردد والخوار " كانت هذه آخر ما يمكن أن يوجه اليه والى سياساته فى الداخل والخارج . وقوانين يوليو الاشتراكية وما تلاها من تطبيقات هي الأولى من نوعها في تاريخ مصر . لم تكن قوانين مترددة خائرة ولكن ضربة جذرية قاصمة . كانت نهاية العصر الرأسمالى فى مصر وبدأت السير نحو الاشتراكية بكل مصاعبه وتعقيداته .
وبالطبع كان آخر ما يمكن أن يوجه للاشترائية في مصر انها غيبية منافقة وقد كان عبد الناصر منذ البداية علمانيا يفصل الدين تماما عن السياسة . وعند اختيار الاشتراكية كان لديه الشجاعة أن يعلن " الاشتراكية العلمية " وهذا أول اعلان واختيار من نوعه يحكم فى الشرق العربى .

ينقد الدكتور اشتراكيات العالم الثالث بانها " مفروضة من أعلى وليست نابعة من ثورات شعبية وهذا نقد سفسطائى وغير صحيح وكل اشتراكيات العالم الثالث كانت نتيجة ثورات وانقذاضات التحرير . وقد أخذت، هذه أشكالاً مختلفة فى البلاد المتخلفة ولكنها أدت الى الاستقلال وبعده كان على القيادات أن تختار بين الاشتراكية و الرأسمالية .

والذين اختاروا كانوا القيادات التى منحتها الجماهير ثقته وتأييدها لتحقيق الحرية ولم يكن ممكنا أو ضروريا أن تسقطهم لتبدأ الاشتراكية من أسفل بقيادة أخرى .
وثورات التحرير فى العالم الثالث مهما كانت اشكالها ثورات وطنية شعبية . وليس هناك شعب يتحرر وطنيا أو اجتماعيا من أعلى .

والاشتراكية تحدث تغيرات جذرية فى ملكية وسائل الانتاج وفى علاقات الانتاج وتقاس الاشتراكية بسلامة وعمق هذه التغيرات كيفما تمت وهى تتم دائما بقيادة الطليعة الثورية التى تمثل الشعب وتتمتع بثقته .

وإذا كان الدكتور يريد أن يوحى أنه يعنى التجربة الناصرية، فلا نطن ان كانت هناك تجربة فى تاريخ مصر لقبية " الشعبية " التى تمتعت بها التجربة الناصرية حتى يوم ذهب عبد الناصر . ولم يكن حقا وعدلا أن توصف أنها مفروضة من أعلى لم تتبع من الشعب وعاشت منفصلة منفصمة عنه .

والجربة الناصرية هى استمرار للثورة المصرية عامة ولكل ثورات مصر وكانت ذروة الثورة الوطنية وبداية الثورة الاجتماعية ولم تكن الاشتراكية غريبة أو غائبة عن الثورة المصرية منذ بدايتها المبكرة . وكانت الثورة الاجتماعية حادة ملحة فى مصر . ولم يفرض عبد الناصر الاشتراكية من أعلى ولكنه حقق مطلبا كان قد نصح تماما فى نفوس الجماهير وأصبح مطلبا أساسيا . والطليعة الثورية تتخذ قرارات حاسمة هى استجابة لارادة الجماهير . وقد باركت الجماهير قوانين يوليو كأمنية عميقة عاشت زما فى نفوسها وأحاطتها بحماسها ولا تزال تحمىها ولهذا لم تفرض الاشتراكية جوفاء مبتورة عقيمة من أعلى على المصريين كما نفى ذلك تماما وبف نفسه الدكتور فؤاد زكريا !

ولكن لو كان صحيحا أن الدكتور الشجاع أراد في ذلك الحين كما لم يستطع أحد من نقاده أن يقول ان هذه " اشتراكية غيبية انتهازية مناقفة نفاقا رخيصة وانها جوفاء مبتورة لا تقدم مكاسب للناس وهي مترددة خائرة مفروضة من أعلى وليست نابعة من ثورة شعبية وتفنقر الى الأصالة الثورية ووقعت في يد طبقة جديدة انحرفت بها وتستخدمها ". فقد كان عليه بعد هذا مباشرة أن ينفذ يديه تماما وأن ينضم للمقاومة ضدها .

كان لابد لهذا المقال أن يكون مقرونا بخطاب استقالته من رئاسة تحرير مجلة الفكر المعاصر " الناصرية " وأن تكون هذه حيثيات الاستقالة .

ولم يكن ممكنا أن يخرج على الناس بعد ذلك بشهر واحد ببحث طويل وتحليل " علمي أمين موضوعي " ينتهي فيه الى نظرية جديدة هي " نظرية الامتلاء ضد نظرية الفراغ " ثم أن يسمح لنفسه أن يصدر الوثيقة الفكرية التي قدمت تقييما دقيقا للثورة بكل جوانبها في العدد الخاص من الفكر المعاصر .

ولقد نعى الدكتور على الشيوعيين أنهم تولوا المناصب لأن " لب المشكلة " أن تولى اليساريين للمناصب معناه أنهم أصبحوا يسировون في طريق غير ذلك الذي نذروا أنفسهم له و أن ارتباطهم بالسلطة وتكونهم جزءا منها كان معناه تقديم تنازلات قد تكون بسيطة في النهاية ولكنها تزداد بالتدرج الى أن ينتهي الأمر الى مرحلة التبرير المطلق لكل الاخطاء " ... ولكن الدكتور لا يخضع لكل هذه الاعترافات وهو فوقها جميعا !!

وليس تناقضا قط أن يقول في اكتوبر ١٩٧٠ شيئا ضد ما يقوله في نوفمبر ١٩٧٠ وأن يقول في ١٩٧٠ عكس ما يقوله سنة ١٩٧٥ .

وراء النقد

ونقد اشتراكية العالم الثالث ووصفها بأنها غيبية ومترددة خائرة وانها من أعلى وانها تنتهي الى يد الطبقة الجديدة صيغ معروفة ومنقولة ولها أصل !

و بظهور العالم الثالث ظهرت مدارس أوروبية جديدة متخصصة في مشاكل العالم الثالث وكانت تضم فرقا من المفكرين والسياسيين الأوروبيين وكان أكثرهم امتدادا في شكل " يسارى " لعقد السيادة الأوروبية القديم وقد أرادوا فرض نوع من الوصاية الفكرية والسياسية على التجارب الجديدة الاشتراكية . ولهذا استغرقوا في النقد والتقييم .

ومعظم هذا النقد كان نظريا مكتبيا وبعيدا عن الواقع العام لبلاد العالم الثالث وعن الواقع الخاص لكل بلد فيه . وكان بمقاييس مستمدة في أغلب الأحيان من الواقع الأوروبي .

ولهذا كان نقدا يوجه الى كل تجربة وأي تجربة وبنفس التهم وهي " الغيبية والتردد والفرض من أعلى والطبقة الجديدة " حتى أصبحت مكررة معادة !

وهناك سيل من الكتب والنشرات والأبحاث تحوى آراء الدكتور حرفية وموجهة الى الهند والى الجزائر والى مصر والى بيرو بلا تفرقة . وهو قد كان له الفضل في النقل والتباهي فقط .

وبعض هؤلاء الاساتذة الغربيين كانوا اساتذة فقط مهما تكن آراءهم أو كانوا باحثين عن أدوار أو مناصب في العالم الثالث . ولكن كثيرا منهم أيضا لم يكونوا بهذه البراءة . وكانت هناك أجهزة كبيرة تعمل تحت شعارات متطرفة أشد التطرف في العالم الثالث ومهمتها أن تدفع التجارب الاشتراكية الى الكارثة عن طريق الاندفاع والمغامرة وذلك بأن تشن الحرب مثلا على الغيبيات أو أن تتخذ خطوات متعجلة لا تتفق والواقع أو بأن تثير الشك والصراع الحاد في صفوف الاشتراكيين لتتعثر التجربة حتى تسقط .

ويضع هؤلاء دائما مسوح الاساتذة الذين يريدون ثورات نموذجية كاملة في العالم الثالث كما لم تحدث في مكان آخر وينقل عنهم كثيرون بسلامة أو بسوء نية .

والنقد الحقيقي للاشتراكية في أي بلد هو نقد الواقع نقدا علميا لا نقل الصيغ وادعائها مع تسمية الأشياء بأسمائها وذكر المراجع والمصادر أيضا!!

ويسأل الدكتور في النهاية " كيف كان يكتب نقادى " .

والدكتور يعانى من " نرجسية بالغة " منذ أول كتاباته ولا يقوى أحد سواه على هذا الافتتان بالذات .
ولكن لو كلف الدكتور نفسه بمراجعة بعض الجرائد والمجلات أو بعض الكتب والدراسات التى كتبها
الذين يهاجمهم.. لبرد الكثير جدا من زهو الطاووس .
وهؤلاء دفعوا ثمننا غاليا لما كتبوه . ولم يصل معظمهم الى رئاسة تحرير أو رئاسة قسم بل منهم من فقد
هذه المناصب ولكن كان لديهم النزاهة والموضوعية والشرف لكى يقولوا الحقيقة دائما .
وهذه هى اخلاقيات المفكرين .
وهى أيضا أخلاقيات المواطن العادى .
